T H E B R A Z I L I A N C A T



آرثر كونان دويل

القط البرازيلي

ترجمة : سماح ممدوح حسن



كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

القط البرازيلي

(رواية مترجمة)

آرثر كونان دويل

ترجمة: سماح ممدوح حسن

عن الرواية..

- إذن، هذا القط متوحش؟

- أكثر المخلوقات فتكاً، وتعطشاً للدماء على الأرض، فأنت تتحدث عن القط البرازيلي، لو وصفته لشخص هندي لرأيته يقفز من مكانه مذعوراً، فالقط البرازيلي يفضل أكل البشر، لكن قطتي البرازيلية هذه، لم تتذوق طعم الدماء البشرية بعد، لكن عندما تفعل، وتأكل إنساناً، حينها ستتحول إلى وحشاً أكثر فظاعة، وإرهاباً، حالياً لا يجرؤ أحداً على الوقوف في عرينه إلا أنا، حتى بلدوين السائس، لا يجرؤ على الاقتراب منه، فأنا بالنسبة للقط أبوه، وأمه في آن واحد"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



1

القط البرازيلي

إن الحظ السيء بالنسبة لشابٍ ذي ذوْقٍ رفيع، باهظ، ولديه آمال كبيرة، وعلاقات أرستقراطية، هو أن لا يمتلك مالاً حقيقياً في جيبه، ولا يمتلك مهنة يتَكسّب منها عيشه.

في الحقيقة أتكلّم عن أبي، كان رجلاً طيباً هادئاً، ومتفائلاً، وواثق من ثروة أخيه الأكبر (عمي) اللورد «ساوثرتون» العازب، وإحسانه، واعتقَدَ أن من البديهي أن لا يدَعني هذا العم، وأنا الابن الوحيد لأخيه، أن أتَكسب رزقي بنفسي، وتصوّر أبي أمراً آخر، اعتَقَده من المسلّمات؛ بأني إن لم يكن لي مكاناً في الملكيات العقارية لساوثرتون العظيمة، فعلى الأقل سأحظَى بوظيفة في السلك الدبلوماسي، والتي لا تزال حتى اليوم حِكراً على الطبقات المميزة.

لكن أبي مات مبكراً للغاية، قبل حتى أن يدرك أن حساباته عن عمي خاطئة تماماً، وأن عمي، والدولة أيضاً، لم يُعطِيَا أي اهتمام لحياتي المهنية، وكل ما كنت أحصل عليه من حينٍ لآخر، هو سرب من طائر السمّان! أو قفص من الأرانب البرية، تُذكرني بأني كنت وريثاً لـ «أوتوال هاوس»، وأحد أغنى رجال العقارات في البلاد.

في غضون ذلك، وجدت نفسي رجلاً عازباً، ونشيط اجتماعياً، عشت في شقة في مبنى «جروسفينور مينيسونز» بدون حماية من رياضيّ صيد الحمام، أو لاعبي الكريكيت في نادي هارلينجهام القريب.

شهر بعد شهر، أدركت أن الوضع يزداد صعوبة بينما أحاول إقناع السماسرة بتأجيل فواتيري، أو صرف أي مبلغ من أملاك عمي، التي سأرثُها بعد وفاته، من الممتلكات التي لم يتركها لي بعد.

يقترب مني خراب حياتي بوتيرة ثابتة، وكل يوم أتأكد من ذلك، وأتأكد أكثر أن لا مفر من هذا المصير البائس، ومما زاد إحساسي بفقري أكثر، هو ثروة عمي «اللورد ساوثوتون» الطائلة، وثراء بقية معارفي، وأقربائي، ومن بين هؤلاء ابن عمي الثاني «إيفرارد كينج» وهو وحيد أبيه مثلي، وكان قد قضى معظم حياته المليئة بالمغامرات في البرازيل، وعاد مؤخراً، واستقر مع ثروته الكبيرة.

لم نعرف أبداً كيف جمع ثروته بالضبط، لكن الأكيد أنه جمع الكثير منها، لأنه اشترى قصراً كبيراً في «جريلاندز» بالقرب من محمية كالبتون في سوفولك،

في أول عام من استقراره في انجلترا، لم يلاحظ أو يهتم حتى بوجودي، أكثر مما لاحظت أنا بخل عمي.

لكن أخيراً، وذات صباح صيفي، صباحٌ استيقظت فيه مُفعماً بالراحة، والنشوة، تلقيت منه خطاباً يدعوني لزيارته، ويطلب مني قضاء أجازة صغيرة لديه في قصر جرينلاندز.

على الرغم من أني، وفي هذا الوقت بالتحديد، كنت أنتظر زيارة طويلة إلى محكمة الإفلاس التي ستُعلن إفلاسي، إلا أن دعوة ابن عمي، جاءت للتدليل على مظاهر العناية الإلهية بي، خاصة لو استطعت إقناع قريبي المجهول بمساعدتي.

بالنسبة لمسألة الانتماء العائلي، لم يسمح لي وضعنا، بالتفكير في حصولي على مساعدة استثنائية منه، لكن على كل الأحوال، أمرت خادمي بحزم حقيبتي، وسافرت في نفس الليلة إلى «كالبتون أون مارش».

بعدما غيّرت القطار من محطة «إيبسويتش»، أنزلني القطار المحلي في محطة أصغر، ومهجورة، تقع وسط بلدة متدحرجة، وعشبية، بها نهراً صغيراً يتلوى داخل، وخارج الأودية بين ضفاف طميية عالية، مما أظهر أننا اقتربنا من المد.

عند وصولي، لم يكن هناك عربة بانتظاري، فكما عرفت فيما بعد أن البرقية وصلتني متأخراً، لذا استأجرت عربة حنطور من عند النُزل المحلي، كان سائقها شاباً طيباً مدح عائلتي كثيراً، وعرفت منه أن اسم السيد «إيفرارد كينج « يعرفه الجميع، ويتردد في كل المقاطعة، فقد وفّر وسائل الترفيه لتلاميذ المدرسة، وفتح أرضُه للزوار، وساهم في الجمعيات الخيرية، باختصار كان إحسانه عالمياً، لدرجة أنّ السائق فسّر هذا، على أنه يطمح لدخول البرلمان.

حوّل انتباهي عن سائقي، عصفور جميل للغاية، يحط على مكتب التلغراف بجانب الطريق، في البداية ظننته عصفور الكناري، لكن هذا أكبر، وريشه أكثر إشراقاً، وبريقاً، وفوراً أخبرني السائق أن هذا العصفور ملك للرجل الذي نقصده الآن، قريبي.

يبدو أن اقتنائه للمخلوقات الأجنبية واحدة من هواياته، فقد أحضر معه من البرازيل عدداً كبيراً من الطيور، والحيوانات التي يسعى لتربيتها، وتوطينها في إنجلترا، وحالما عبرنا بوابة قصر جريلاندز، تأكدت لنا حقيقة هوايته، فقد رأينا بعض الغزلان الصغيرة المُرقطة، وخنزير بري معروف، كما تُعرف البقرة على ما أعتقد، وعصفور صغير بألوان ريش متلألئة، ومبهجة، وبعض الأنواع

من حيوانات الأرماديلو، وعصفور سمين جداً كالوحش، وبعضاً من الحيوانات الأخرى، التي لاحظتها في طريقنا المتعرج.

كان السيد «إيفرارد كينج» قريبي المجهول، يقف شخصياً بانتظاري، على عتبة بيته، فقد رآنا من على بُعد مسافة، وخمن أني أنا القادم، مظهره رائع، ودود، ولطيف، مظهر رجل خيّري، قصير قوي البنية، وفي حوالي الأربعين من عمره، وجهه مستدير جميل لوحته الشمس الإستوائية، وامتلأ بآلاف التجاعيد، يرتدي ملابس من الكتان الأبيض بمظهر مزارع حقيقي، السيجار بين شفتيه، وقبعة كبيرة خلف رأسه.

كان مظهره مثل شخص يسكن في كوخ من القش، فبدا شكله غريباً أمام هذا القصر الإنجليزى الحجري العريض بأجنحته المتينة، وأعمدة الأديو أمام الباب.

صاح مبتهجاً حالما رآني:

- عزيزي.

ونظر من فوق كتفه:

- عزيزتي، ها هو ضيفنا العزيز، أهلاً أهلاً بك في جرينلاندز، كم أسعدني التعرُف عليك ابن عمي العزيز مارشال، إن حضورك لهذا البلد الريفي النائي لشرف عظيم.

لا يوجد شيء أكثر لطفاً من ترحيبه الحار، مما بعث إلى قلبي راحة كبيرة في الحال، وفي الحقيقة كان بحاجة لإبداء كل هذا اللطف للتكفير عن برودة، وحتى فظاظة، زوجته، امرأة طويلة هزيلة أتت حالما استدعاها، كانت، حسب اعتقادي، برازيلية رغم لغتها الإنجليزية الممتازة، وأنا بررت سلوكها الفظ بجهلها بعاداتنا.

لكنها لم تحاول الآن أو فيما بعد، إخفاء شعورها بأني ضيفاً غير مرحباً به في قصر جرينلاندز إطلاقاً، كلماتها المنطوقة كانت مهذبة، لكن عيونها الداكنة، وبكل وضوح، عبّرت لي، ومن البداية عن رغبتها العميقة بعودتي إلى لندن في الحال.

على أي حال، كانت ديوني ملّحة، وضاغطة، وخططي على قريبي الثري هي أملي الوحيد، ولن أسمح بإفساد هذه الخطط فقط من أجل مزاج زوجته السيء، وعليه، تجاهلت برودتها، ورددت حفاوة استقبال زوجها بالمثل.

لم يدخر جهداً في سبيل راحتي، وأعدّ لي غرفة ساحرة، حتى أنه توسلني بإخباره أي شيء سيسعدني، وحينئذ، كان على طرف لساني قول، أن شيكاً

بنكياً على بياض سيحقق لي هذه الغاية، لكنني شعرت أن هذا الكلام سابقاً لأوانه، خاصة، ونحن تعارفنا للتو.

تناولنا ألذ عشاء، وبينما نجلس سوياً ندخن سيجاره الكوبي، ونشرب القهوة، والتي كما أخبرني لاحقاً، بأنها تُزرع له خصيصاً في مزرعته، حينها تأكد لي؛ أن كل المديح الذي أطربني به السائق له مبرره، وأني بالفعل لم ألتقِ قط برجل مضياف، وكريم أكثر منه.

لكن، بالرغم من طباعه المرحة، إلا أنه رجلاً يمتلك إرادة قوية، ومزاج خاص، وهذا ما رأيته في صباح اليوم التالي، عندما تجسد شعور نفور زوجته مني في أوضح الصور. فعندما جلسنا نتناول الإفطار، قارب أسلوبها معي حد الإساءة خاصة عندما غادر زوجها المائدة، وحينها قالت لي:

- سيقلع أفضل قطار في البلدة بتمام الساعة الثانية عشر والربع.

فأجبتها بصراحة أو بتحدي، لأني كنت مُصّراً على ألا تطردني هذه المرأة، وقلت:

- لكني لا أنوي الرحيل اليوم!

- هل أنت مُصّر؟

سألتني، ولم تُكمل حديثها لكنها رمتني بنظرة وقحة من عيونها.

- أنا متأكد، فالسيد إيفرارد كينج، سيخبرني في حال مكثت هنا مدة أطول من أن أكون محل ترحيب.

- ما هذا؟ ما هذا؟

كان ذلك صوت زوجها آتياً من الغرفة، فلقد سمع كلماتي الأخيرة، ونظر في وجوهنا التي استشف منها الباقي، وعلى الفور تغيّر وجهه المتلألئ بهجة، إلى وجهاً تُعربد فيه الوحشية المطلقة، وقال لي:

- سوف أزعجك، وأطلب منك التمشية في الخارج قليلاً يا مرشال.

هل ذكرت لكم أن اسمى مارشال كينج.

أغلق الباب خلفي، وفي نفس اللحظة سمعته يتحدث بصوت خفيض إلى زوجته بانفعال جارف، من الواضح أن انتهاكها الجسيم لحُسن الضيافة، أصاب أرق نقطة في قلبه.

وبما أني لا أتنصت على أحد، نزلت للتمشية في الحديقة، وما إن أدرت ظهري للبيت، حتى سمعت صوت خطوات مسرعة يأتي من خلفي، وكانت

السيدة، التي شحب وجهها من الإنفعال، واحتقنت عيناها بالدموع، وقالت:

- سيد مارشال كينج، طلب مني زوجي أن أعتذر إليك.

وظلت واقفة أمامي بعيون حزينة، فقلت لها:

- من فضلك سيدة كينج، لا تزيدي كلمة أخرى.

وفجأة رمتني عيونها الداكنة بنظرة نارية، وقالت:

- أنت غبي!

ثم استدارت، وعادت لبيتها، كانت إهانة لا تحتمل، حتى إني ظللت مجمداً مكاني أنظر إليها في حيرة.

كنت لا أزال مكاني، حتى انضم إليّ مُضيفي، بعدما عاد إليه مرحه، وابتهاجه مرة أخرى، وقال:

- أتمنى أن تكون زوجتي اعتذرت عما بدر منها من كلام فظ.

- آه، نعم بالتأكيد.

علّق يده في ذراعي، وتنزه معي بالحديقة، وأكمل حديثه:

- لا تأخذ كلامها على محمل الجد، وسأحزن بشدة إن أنت قطعت حتى ساعة واحدة من زيارتك لبيتي، ففي الحقيقة ليس هناك سبباً لتغيّب الأقارب عن بعضهم، وإن حدث فهذا شيئاً محزناً للغاية، لكن زوجتي الحبيبة تشعر بالغيرة الشديدة، فهي تكره أي شخص يزورنا سواء كان رجلاً أو امرأة، فهي ترغب أن نعيش أنا، وهي فقط، في جزيرة منعزلة للأبد، وهذا يفسّر لك أفعالها، والتي سأعترف، بأنها في هذه النقطة بالذات، قاربت على الهوس، طمئِني، وقل إنك لن تفكر في الرحيل.

- لا، لا، أنا بالتأكيد لا أفكر في الرحيل.

- إذن، دعنا نُشعل هذا السيجار، وسآخذك بجولة ترى فيها حديقة الحيوان الصغيرة التي أنشأتها لنفسي.

استغرقت هذه الجولة فترة بعد العصر بأكملها، وتضمنت مشاهدة الحيوانات، والطيور، والزواحف التي استوردها، كان بعض هذه الحيوانات حراً طليقاً، والبعض الآخر حبيس الأقفاص، وبعض الأنواع كانت تقريباً مقيمة بالبيت.

حكى لي بحماس عن كل نجاحاته، وأيضاً عن فشله، عن ميلاده، وموته، أحياناً يصرخ فرحاً كطفل صغير عندما يرى، ونحن نتنزه بعض العصافير المبهرجة، أو حيوان فضولي تسلل من الحواجز.

أخيراَ، أخذني إلى ممر سفلي، يمتد من أحد أجنحة البيت، وفي نهاية الممر باب ثقيل، مُغلق بترباس كبير، وبجانبه يخرج من الحائط مقبض حديدي متصل بعجلة، ومكبح، وعبر الممر يمتد صفاً من القضبان القوية ملتحمة ببعضها كباب كبير.

- أنا على وشك عرض دُرة المجموعة عليك، لا يوجد من هذه الجوهرة الفريدة سوى واحدة أخرى في أوروبا، بروتردوم، وقد ماتت لتصبح هذه هى الوحيدة الآن، وها هو القط البرازيلي.

- لكن ما الذي يميّز قِطك عن القطط الأخرى؟

- سترى الآن.

قالها، وضحك.

- يمكنك فتح ترباس نافذة الباب، والنظر من خلاله.

وما إن فتحت النافذة الصغيرة في الباب، حتى وجدت نفسي أنظر إلى غرفة كبيرة خالية بأرضية حجرية، وعلى حائط الطرف الأبعد من الغرفة نوافذ صغيرة ككوة عليها قضبان أيضاً، وفي وسط الغرفة رأيته.

مستلقياً في بقعة ضوء الشمس الذهبية، عبارة عن مخلوق ضخم بحجم نمر، لونه أسود فاحم، أملس كخشب الأبنوس.

وببساطة كان هذا المخلوق عبارة عن قِط، قط أسود هائل الحجم، عملاق، معتَنى به جيداً، يتمدد مستمتعاً ببركة نور الشمس الصفراء، كما يفعل أي قط عادي.

لكن هذا القط في منتهى الرشاقة، وعضلاته أكثر قوة، مظهره لطيف بنعومة شيطانية مدهشة، لدرجة أني لم أستطع منع فتح عيني على اتساعهما.

- أليست بديعة؟

قال مضيفي بحماس.

- بل مجيدة متألقة، في حياتي لم أرَ مخلوقاً بهذه الرفعة، والنبل.

- بعض الناس يسمونها الفهد الأسود، لكن في الحقيقة ليست فَهداً على الإطلاق، فطول هذه الرائعة من الرأس للذيل حوالي إحدى عشر قدماً، من أربع سنوات فقط لم تكن أكثر من مجرد كرة فراء صغيرة بعينين صفراوين تحدقان فيما حولها، وكانت تُباع كشبل صغير مولود حديثاً عند منبع نهر «ريو نيجرو»، وكان أهل المنطقة البرية هذه، قد قتلوا أمه من وقت قريب، بعدما هاجمت، وقتلت العشرات منهم.

- إذن، هذا القط متوحشا؟

- أكثر المخلوقات فتكاً، وتعطشاً للدماء على الأرض، فأنت تتحدث عن القط البرازيلي، لو وصفته لشخص هندي لرأيته يقفز من مكانه مذعوراً، فالقط البرازيلي يفضل أكل البشر، لكن قطتي البرازيلية هذه، لم تتذوق طعم الدماء البشرية بعد، لكن عندما تفعل، وتأكل إنساناً، حينها ستتحول إلى وحشاً أكثر فظاعة، وإرهاباً، حالياً لا يجروء أحداً على الوقوف في عرينه إلا أنا، حتى بلدوين السائس، لا يجرؤ على الإقتراب منه، فأنا بالنسبة للقط أبوه، وأمه في آن واحد.

وبينما يتحدث، صُدمت، عندما انسلّ فجأة لغرفة القط، وأغلق الباب خلفه، حينئذٍ ارتفع صوت المخلوق الرشيق الضخم، وتثاءب، وفرك رأسه الأسود برقة، بينما يربت قريبي عليه، ويداعبه.

- الآن تومي، ادخل قفصك.

قال له، وكما لو فَهم الكلمات، قام القط المتوحش، وسار إلى أحد جوانب الغرفة، والتف حول نفسه تحت عارضة حديدية تظهر من فوقه، ومتصل بها سقف مصنوع من شبكة تحت سقف الغرفة.

خرج «إيفرارد كينج» من الغرفة، وأمسك المقبض الذي رأيته عندما ما دخلنا الممر، وأداره، عندها دخل صف القضبان المتجاورة، الشبيه بالباب، البادئ أوله في الممر، ويدخل إلى غرفة القط عبر فتحة في الحائط، ويشكل قفص حوله.

بعدما أغلق القفص على الوحش، فتح باب الغرفة مرة أخرى ودعاني كينج للدخول، هَبّت من الغرفة رائحة نفاذة، وعفنة، رائحة تُميّز عرين الحيوانات آكلة اللحوم، فشرح لي كينج تفاصيل ما حدث.

- هذه طريقة تعاملنا مع القط، نخرجه للتريُض نهاراً، وبالليل نضعه في القفص، ولا يمكن تحريره من قفصه، إلا بإدارة المقبض في الممر خارج باب الغرفة، ويمكنك حبسه بنفس الطريقة التي رأيتني أتبعها، لا، لا ماذا تفعل! إياك أن تفعل هذا مرة أخرى.

ذُعر كينج هكذا عندما رآني أضع يدي بين قضبان القفص، لأربت على فراء القط اللامع من جانبه القريب مني، فسحب يدي سريعاً منفعلاً بوجه صارم.

- أوكد لك أن ما فعلته خطراً جداً، فلا يُغريك تعاملي معه بحرية، فهو لن يسمح لأحداً آخر يفعل مثلي، ولن يسمح لأحد حتى بالاقتراب منه، فهو محدود جداً في صداقاته، أليس كذلك تومي؟ آه، الآن هو يسمع غداءه الآتي في الطريق! أليس كذلك يا صديقي؟

وبالفعل كان هناك صوت خطوات أقدام آتٍ على أرضية الممر الحجري، فقفز المخلوق على قدميه وبدأ يسير جيئةً وذهاباً في أركان قفصه الضيق، عينيه الصفراوين تلمعان، ولسانه الوردي يهتز على صف أسنانه البيضاء الحادة.

دخل السائس يحمل صينية عليها قطعة لحم كبيرة، ودفع الصينية خلال القضبان إلى القط، الذى أنقض عليها برفق، وحملها بين أسنانه الحادة، وأخذها إلى ركن القفص، وهناك أمسكها بكفوفه، ومزقها قطعاً، ومن حين لآخر يرفع عينيه، وفكه الملطخ بدم غذائه لينظر إلينا، كان المشهد ضارياً متوحشاً، لكن مدهش.

- أظن أنك تتساءل لماذا أنا مغرماً بهذا القط، أليس كذلك؟

سأل مضيفي، ونحن نغادر الغرفة.

- خاصةً عندما تفكر في أني ربيته منذ أن كان شبلاً صغيراً، لم يكن إحضاري هذا الشبل من أمريكا الجنوبية للدعابة، والمرح، لكن لأنه هنا سيكون بأمان، ويتلقى رعاية جيدة، وكما قلت سابقاً، إنه النموذج المثالي في أوروبا، فالمسؤولين في حديقة الحيوان مستميتين للحصول عليه، لكن حقيقةً لا أستطيع فراقه، الآن، وبعدما أعتقد أنني فرضت عليك هوايتي أكثر مما يجب، لذا، فإن أفضل ما نفعله الآن الرجوع للبيت، وتناول الغذاء مثل تومي!

ينهمك قريبي الجنوب أمريكي بأرضه، ومستأجريها الغرباء، وحينما أستطيع أن أنفرد به بعيداً عن هؤلاء المستأجرين، لأحدثه في مشكلة ديوني، حتى ينشغل أكثر بمجموعة برقيات تلقاها للتو، كانت البرقيات تصله طوال الوقت، وباستمرار، ودائماً ما كان يحرص على قراءة هذه البرقيات فور وصولها بوجه مليئ بالقلق.

أحياناً أفكر أن هذه البرقيات من مسؤولي سباقات الخيول أو من مسؤولي البورصة، لكن يقيناً، دائماً ما يكون لديه أعمالاً عاجلة للغاية، ومستمرة، ومما لم يتم التعامل معها في» داونز أوف سوفلك»، على مدار ستة أيام ضيافتي لم تكن تصله يومياً أقل من ثلاثة أو أربعة برقيات، وأحياناً أكثر كانت تصله سبعة أو ثمانية.

استغليت ستة أيام من ضيافتي لدى قريبي على أكمل وجه، وفي أواخر الزيارة كنت قد نجحت في بناء علاقة ودية عظيمة بيني، وبينه، كل ليلة نجلس سوياً في غرفة البلياردو يروي لي قصص مغامراته المدهشة في أمريكا الجنوبية، مغامرات متهورة، وطائشة، لدرجة إني بالكاد أستطيع ربط هذه القصص بصاحبها، ملفوح البشرة السمين الجالس أمامي.

بدوري حكيت له أنا أيضاً عن بعض مغامراتي، وذكرياتي الخاصة، وعن حياتي في لندن، والتي حمّسَته كثيراً، حتى أنه وعدني بزيارتي في مبنى «جروسفينور مانيسونز»، والإقامة معي لفترة.

كان حريصاً على رؤية الجانب السريع للمدينة، وكما صِرت متأكداً، أنه لن يجد له مرشداً في هذه المدينة أكفأ مني.

لم يدُم الحال كهذا كثيراً، ففي اليوم الأخير لزيارتي تجرأت ولمّحت له بما يدور في ذهني؛ ثم صرّحت له عن الصعوبات المالية التي أواجهها، والخراب الكبير الذى سيحل عليّا قريباً، وطلبت منه النصيحة رغم إني كنت أنشد منه أكثر من النصيحة، كان يصغي لي باهتمام، وينفخ سيجارُه، ويسألني:

- لكن، هل أنت متأكد من أن عمنا اللورد سوثيرتون سوف يوّرثك؟

- لديّ كل الأسباب التي تجعلني أصدق هذا، لكنه لم يمنحنِ أي مخصصات حتى الآن.

- لا، ولن يمنحك، فقد سمعت عن شدة بُخله، يا مرشال المسكين، وضعك صعباً جداً، بالمناسبة، هل سمعت مؤخراً أي أخبار تخص صحة عمنا البخيل اللورد ساوثيرتون؟

- منذ طفولتي، وحتى الآن، وهو في حالة صحية حرجة.

- بالضبط، فمفاصل جسده تئن، لو كانت لا تزال موجودة، ولو كان لك عنده ميراث أظنه سيكون بعيد المنال، يا عزيزي، وضعك سيء، وصعب للغاية.

- سيدي، كنت آمل، بما أنك صِرت تعرف حقيقة وضعي الآن، ربما لو تستطيع تقديم بعض....

- لا تقل كلمة أخرى، يا صديقي العزيز، الليلة سنتحدث في كيفية مساعدتك للخروج من هذا المأزق، وأعدك بأني سأبذل قصارى جهدي لحل مشاكلك.

هكذا صاح بكل ود.

لم آسف على قرب انتهاء موعد زيارتي، فمن غير المبهج أن تشعر أن هناك شخصاً بالبيت يود مغادرتك، وكلما طال بقائي ينضح وجه السيدة كينج الشاحب، وعيناها القاسية أكثر، وأكثر كرها لي.

ورغم أن وقاحتها لم تعد مباشرة، إلا أن خوفها الشديد من زوجها منعها من إهانتي، لكن غيرتها المجنونة دفعتها لتجاهلي، ولم تتحدث إليّ أبداً، وطوال مدة زيارتي حاولت بكل الطرق جعل إقامتي في قصر جرينلاندز غير مريحة.

بالتأكيد كان أسلوبها معي مهيناً من البداية، لكن الإهانة وصلت لذروتها في اليوم الأخير، لدرجة أنه كان لزاماً عليّا أن أغادر، لولا أن منعني موعد مقابلتي المهمة المسائية، التي اتفقت عليها مع قريبي، والتي أتمنى أن تُحَل فيها جميع مشاكلي، وأسترد ثروتي المحجوزة.

كان الوقت متأخراً جداً عندما حدث هذا، عادة كان ابن عمي يتلقى جميع برقياته نهاراً، يدخل إلى مكتبه بعد العشاء، ولا يظهر إلا عندما يذهب الجميع للنوم، أما في الليلة التي تواعدنا فيها على اللقاء، سمعته يخرج لإغلاق الباب الرئيسي للبيت، كما هي عادته كل ليلة، وبعدها انضم إليّ في غرفة البلياردو كما اتفقنا.

جاء مدثراً جسده القوي السمين في عباءة، ويلبس زوج من النعال التركية الحمراء الزاحفة بدون كعب، جلس على كرسيه المعتاد، وسكب لنفسه كأس ويسكي، ولم أرَ جيداً إن كان الويسكي في الكأس أكثر من الماء.

- ماذا أقول عن جمال ليلتنا!

قال فجأة.

في الواقع كانت الرياح بالخارج تعوي، وتصرخ حول البيت، حتى النوافذ الشبكية اهتزت، وطقطقت من عُتو الريح؛ كما لو كانت ستنخلع من مكانها، وكما لو أن وهج المصابيح الصفراء زاد بريقها، ونكهة سجائرنا باتت أكثر عَبقاً.

- الآن يا صديقي، نحن نمتلك البيت، والليل لأنفسنا فقط، لذا اسمح لي، بأن أقترح عليك فكرة بخصوص وضعك المالي المتأزم، وسأرى ماذا سأفعل لتنفيذها، وأرجو أن أسمع منك التفاصيل.

هكذا بدأ مضيفي الليلة، مما شجعني على سرد قصة طويلة عن التّجار، والدائنين، من مالك العقار، وحتى خادمي، كنت أحتفظ في جيبي بدفتر ملاحظات جمّعت فيه كل الحقائق عن وضعي، ودونت أنا بنفسي بياناً عن أساليبي المهنية غير العملية، ووضعي المؤسف.

رغم كلامه المشجع إلا إني أصبت بالإحباط، عندما رأيت عينيه شاردة، وانتباهه منصرفاً تماماً لمكانٍ آخر، وحتى عندما يعلق على كلامي من حينٍ لآخر، يكون التعليق ليس أكثر من ملاحظة روتينية، كما لو كان يُجبر نفسه على الإنتباه، وإظهار بعض الاهتمام، وأحياناً كان يطلب أن أكرر ما قلت أو أستفيض في شرح بعض التفاصيل، وبعدها ينغمس مرة أخرى في التفكير فيما كان شارداً فيه من قبل، أخيراً، قام من كرسيه، رمى سيجارته بضيق، وقال:

- صديقي، سأصارحك، في حياتي لم أمتلك ذاكرة جيدة للأرقام، سامحني، واكتب كل ما تريد في تقرير، وملاحظة أخيرة بالمبلغ المطلوب، وهذا سيسهل عليّ معرفة ما سأساعدك به تحديداً.

اقتراحه شجعني أكثر، ووعدته بأن أنجز التقرير بأسرع ما يمكن.

- والآن حان وقت النوم، يالله دقات ساعة الصالة تشير للواحدة ليلاً!

ودقات عقارب الساعة الرنانة، كانت الشيء الوحيد الذي كسر هدير العاصفة العميق، والريح لا تزال تعصف؛ كما لو كانت نهراً ثائراً.

وفجأة استدار مضيفي، وقال:

- قبل النوم ينبغي أن أذهب، وأتفقد القط، فهذه العاصفة تهيّجه، هل تأتي معي؟

- بالتأكيد.

أنا رددت.

- إذن، فلتمشي بهدوء، ولا تتكلم، فكل سكان البيت نائمين الآن.

مررنا بهدوء عبر القاعة المصممة على الطراز الفارسي، والمضاءة بعدة مصابيح، وخرجنا من الباب عند طرفها الأبعد، في الخارج كان الظلام مُخيماً على الممر الحجري، ولكن أمام العرين يوجد فانوساً معلقاً على خُطاف، أنزله مضيفي، وأوقده، ولم أرَ على حائط الممر حاجز القضبان، فعرفت أن القط المتوحش في قفصه.

- ادخل.

قال مضيفي، وفتح الباب.

حالما دخلنا ارتفع هدير عميق للمخلوق، من الواضح أن العاصفة أثارته بالفعل، على ضوء المصباح رأيناه، كتلة سوداء ضخمة ملفوفة على نفسها فى ركن القفص، وألقى بظلاله على الحائط الأبيض، يهز ذيله بعنف مبعثراً القش المفروش بالأرض.

- تومى المسكين، هو الآن في أسوأ مزاج.

قال كينج، وهو يرفع المصباح أكثر حيث القط.

- يشبه شيطاناً أسود، وهو في هذه الحالة، أليس كذلك؟ لذا، يجب أن أقدم له عشاء إضافي خفيف، لعله يعدّل مزاجه، هل تمانع لو أمسكت المصباح للحظة؟

أخذت المصباح من يديه، ووقفت عند الباب.

- مخزون طعامه هناك، أستأذنك للحظة.

قالها مضيفي، وهو يخرج، وأغلق الباب وراءه بقوة، فأصدر قرع معدني مخيف جعل قلبي يتجمد خوفاً، فجأة اجتاحتني نوبة هلع فظيعة، وانتابني تصوّر غامض بأن قريبي خانني، وهذه التصورات زادت من شعوري بالبرودة، قفزت إلى الباب، لكن لم يكن فيه ذلك المقبض المستخدم لفتحه، فصرخت:

- أنا لازلت هنا، دعني أخرج!

وجاءني صوته المجيب من الممر يقول:

- اسمع لا داعي لكل هذا الضجيج، فلا تقلق طالما مصباحك مضاء.

- نعم، المصباح مضاء، لكني لا أريد الاحتجاز وحدي هنا!

- لست وحدك.

وسمعته يضحك مقهقهاً ساخراً من حيث مكانه في الممر.

- أو لن تظل وحدك لوقت طويل!

- سيدى، دعني أخرج، أنا لا أحتمل أو أسمح بهذا النوع من المزاح، والمقالب.

قلت غاضباً

- مقالب، بالضبط الكلمة الأنسب مقالب.

قالها مضيفي بضحكة مكتومة بغيضة.

فجأة سمعت بعدها، ووسط هدير العاصفة، صوت صرير دوران المقبض، والرافعة، وحشرجة القضبان الحديدية، وهي تنسحب للخارج من فتحتها في الحائط.

«يالله! إنه يطلق سراح القط، يحرره من القفص»

على ضوء المصباح في يدي رأيت صف القضبان الشبيه بالستار ينزلق ببطء أمامي، وبالفعل قد فُتح بمقدار شبر في طرفه الأبعد، صرخت بأقوى ما لديّ، أمسكت ذلك الطرف، وحاولت سحبه لأغلقه كما كان بقوة رجل قد جُن، كنت بالفعل شخصاً مجنوناً، وغاضب، ومرعوب.

لدقيقة أو أكثر تشبثت دون حراك بستار القضبان هذا، كنت أعلم أنه يضغط بكل قوته على المقبض الذي يفتح به هذه القضبان، وقوته الآن مقابل قوتي، وأعلم أنه سيتغلب عليّ.

استسلمت شبراً شبراً، قدماي تنزلقان على حجارة الأرضية، وطوال الوقت استمريت في توسلي لرحمة هذا الوحش البشري، قريبي، ولينقذني من هذه الموتة الفظيعة، ناشدته بحق القرابة، وذكّرته بأني ضيفه، ورجوته أن يخبرني الجرم الذي ارتكبته في حقه، واستحققت عليه مثل هذا العقاب.

لكنه لم يُجبنِ إلا بسحب المقبض، والنقر عليه، ورغم كل مقاومتي؛ إلا أنه نجح في سحب القضبان حتى آخره عبر فتحة الحائط، ظللت متشبثاً، وسُحِبت على طول واجهة القفص، وأخيراً مع كل ألم معصميّ، وأصابعي الممزقة، استسلمت، وتخليت عن كفاحي البائس.

بعد إدراكي لعدم جدوى المقاومة أفلت يدي عن القضبان، وتراجعت للخلف، وبعد لحظة سمعت صوت النعال التركية فى الممر الطويل، وصوت صفق باب البيت، وبعدها صَمت كل شيء.

أثناء ذلك، ظل المخلوق هادئ لا يتحرك، يستلقي ساكناً في ركن القفص يؤرجح ذيله، ويبعثر القش أسفله، لكن، وكما هو واضح من ملامحه أن وجود إنسان متشبث بقضبان قفصه، ويصرخ بهستيريا قد ملأه دهشة.

رأيت عينيه الكبيرتين تنظران لي بثبات، وكنت قد أوقعت المصباح من يدي، وأنا متشبث بالقضبان، لكنه ما زال موقداً على الأرض، لا أعرف لما فكّرت أن الضوء سيحميني، فتحركت، وأمسكته، لكن في اللحظة التي تحركت فيها أطلق الوحش هديراً عميقاً مخيفاً، فتوقفت، تجمدت مكاني، وقلبي يرتعد خوفاً.

لم يكن القط - إن جاز لنا أن نُطلق على هذا الكائن المرعب تلك التسمية الودودة المألوفة - يَبعُد عني بأكثر من عشرة أقدام، عيونه اللامعة الكبيرة تتلألأ في الظلام؛ كأنهما كشافين فسفوريين، أرعبتني هذه العيون، وفتنتني في آنٍ، حتى أني لم أستطع إبعاد ناظري عنهما.

لا أستغرب من شعوري المتناقض بهذا المخلوق، فدائماً ما تلعب معنا الطبيعة بخدع غريبة، تماماً مثل خدعة لحظة الرعب هذه من هاتين العينين البراقتين تشعان، وتخبوَان، بصعودٍ، وهبوط ثابت.

أحياناً، يبدوان كما لو كانا نقطتين صغيرتين جداً تلمعان بشدة، كأنهما شرارة كهربائية صغيرة طارت، وبرقت في الظلام الحالك، وبعدها تتسعان، وتتسعان حتى تملآن كل زوايا الغرفة، بإضاءة مراوغة شريرة، وفجأة تنطفئ إضاءة العينين معاً.

أغلق القط عينيه، لكن لا أعرف إن كان حقاً ما يقال عن فكرة هيمنة النظرة البشرية، وأن نظرتي هي ما أثرت به، أم أنه، وبكل بساطة نعسان! لكن

الحقيقة أنه لم يُظهر أي بوادر لمهاجمتي، ببساطة أسند رأسه الأملس الأسود على قائمتيه الأماميتين العملاقتين، وبدا، وكأنه نام.

ظللت واقفاً خائفاً أن أتحرك، حتى لا أثيره، وأُوقظه مرة أخرى، لكن على الأقل صِرت قادراً على التفكير بوضوح بينما هاتين العينين المهلكتين بعيدةً عني.

قضيت طوال الليل أخرساً بصحبة هذا الوحش الضاري، لكن إحساسي العميق، بالإضافة لكلمات ابن عمي الشرير الذي نصب ليَ هذا الفخ، حذّرتني من هذا الكائن المتوحش كصاحبه، وألا أنخدع بهدوئه المؤقت.

كيف سأستطيع النجاة حتى الصباح؟ فمن المستحيل أن يُفتح الباب، وقضبان الباب أضيق من أن أمر خلاله، وكذلك نوافذ الغرفة، التي لم تكن أكثر من مجرد كُوة.

لم يكن مِن ملجأ في أي مكان بهذه الغرفة الجرداء المكسوة فقط بالحجارة، والصراخ طلباً للمساعدة الآن سيكون غباء، فهذا العرين، كما أعرف، خارج مبنى البيت، وأيضاً ذلك الممر الذى يربطه بالمنزل بطول مائة قدم على الأقل.

بالإضافة إلى العاصفة التي تعوي بالخارج، ويغطي صوت زئيرها الهادر على أي صوتٍ آخر، وستمحَى كل فرصة لسماع صوت صرخات، لا أمتلك الآن سوى شجاعتي، وذكائي لأعتمد عليهم.

اجتاحتني نوبة رعب جديدة بعدما رأيت أن فتيل المصباح يخفت، وقارب على الإنطفاء، ربما لن يطول عمر النور هنا أكثر من عشرة دقائق إضافية، لديّ فقط عشرة دقائق لأفكر في حل، فأنا أشعر أني لو بقيت للحظة واحدة في الظلام مع هذا الوحش لن أفعل شيء أبداً؛ فقد أصبت بالشلل لمجرد التفكير في ذلك.

ألقيت نظرة يأس على أرجاء غرفة الموت هذه، ووقعت عيني على بقعة بدت، لن أقول إنها آمنة، لكن يمكن القول أنها بعيدة عن الخطر الوشيك أكثر من بقية الأرض المفتوحة للغرفة.

كنت قد ذكرت لكم أن هذا القفص له عارضة في أعلاه كسقف للقفص، كما له واجهة، وهذه العارضة في الأعلى ثابتة، بينما تتحرك الوجهة أو باب القفص من خلال فتحة بالحائط يخرج منها إلى الممر في الخارج، وهذه العارضة الثابتة تتألف من قضبان حديدية بفاصل بِضعة بوصات بين كل قضيب، وآخر، يمتد بينهم شبكة سلكية قوية، تستند على دعامات قوية من كل طرف، كانت مصنوعة كمظلة كبيرة فوق الكائن الضخم الرابض في الزاوية.

وبين سقف القفص، وسقف الغرفة، تُركت مسافة حوالي ثلاثة أقدام، فقط لو استطعت التسلق إلى هناك، وحشرت جسدي بين شبكة القفص، وسقف الغرفة سأكون بمأمن نسبياً، لكن يجب ألا أترك نقطة ضعف واحدة يمكن للكائن مهاجمتي من خلالها، يجب أن أأَمِن نفسي من الأسفل، والخلف، ومن كل الجوانب، تحسباً لأي هجوم.

ومع ذلك ربما في هذا المكان سأتعرض للهجوم، لكن تبقى الحقيقة، وهي أنني لا أمتلك أي حماية، لكن على الأقل سأكون بعيداً عن طريق، ووجه هذا الوحش عندما يستيقظ، ويتمشى في عرينه.

لو ترك مكانه سيصل إليّ، لذا إما أَتحرك الآن أو لن أتحرك أبداً، فلو انطفأ آخر وهج في فتيل المصباح، سيصعب عليّ تنفيذ الخطة، بغِصة في حلقي وقفت، أمسكت بالحافة الحديدية في قمة القفص، وأرجحت جسدي عليه، وأنا ألهث، من حينٍ لآخر كنت أرمي بوجهي للأسفل، ولحظتها وجدتني أنظر مباشرة لعيون القط الرهيبة، وهو يتثاءب، ضربت أنفاسه النتنة وجهي، كبخار يخرج من وعاءٍ قذر.

لا أعرف لما اعتقدتُ أن نظرته فضولية أكثر منها غاضبة!

ومع تماوج لمعان فراءه الأسود الطويل، وقف.. وقف بداية على قائمتيه الخلفيتين، مدد جسده، ورفع أحد مخالب قائمتيه الأمامية على الحائط، وخربش بالأخرى على شبكة الأسلاك الموجودة تحتي.

مزق مخلبه الحاد الأبيض بنطالي، فكما ذكرت سابقاً كنت لا أزال مرتدياً ثياب السهرة، وقد حفر مخلبه جرحاً أخدودياً في ركبتي، لم يكن القصد مما فعل بمخلبه بداية مهاجمتي بقدر ما كانت تجربة أولية، لأني بعدها أطلقت صرخة مدوية جعلت القط يتراجع عني، ثم انطلق بهدوء إلى الغرفة، وبدأ يهرول سريعاً في أرجائها، وبين لحظة، وأخرى ينظر للأعلى تجاهي.

بالنسبة لي، كنت أرْتد للوراء حتى التصقت بظهري على الحائط، وقلصت جسدي في أصغر مساحة ممكنة، فكلما تراجعت للوراء في تلك المساحة صعب عليه مهاجمتي.

بعد قليل بدأ ينفعل أكثر، ويتحرك أسرع، وبدون ضجيج، ثم زادت سرعته حتى طاف في كل أرجاء العرين، واستمر في المرور، والدوران تحت مرتبتي الحديدية التي أستلقي عليها الآن.

كان ممتعاً مشاهدة هذه الكتلة السوداء الكبيرة تمر تحتي كظل، بحفيف فرائه الأنعم من الوسائد المخملية، احترق فتيل المصباح حتى قارب على

نهايته، وخفت الضوء حتى أني بالكاد استطعت رؤية هذا الكائن، وبعدها، ومع موت آخر وهج فيه تماماً، بِت وحدي مع هذا القط في الظلام الحالك!

من الأمور التي تساعد الإنسان على التغلب على خوفه، هو إدراكه أنه قام بعمل كل ما يستطيع، بذل كل ما بوسعه، وبعدها لا يعُد بإمكانه سوى انتظار النتيجة بهدوء، وفي حالتي لم يكن من مكان أكثر أمناً، إلا هذه السنتيمترات التي قلصت فيها جسدي، تمددت، واستلقيت بصمت، وهدوء تام، وتقريباً كتمت أنفاسي، كنت آمل أن ينسى الوحش وجودي لو لم آتٍ بأي فِعل يُذكّره بذلك.

خمنت أن الساعة الآن ربما تكون الثانية ليلاً، وبحلول الرابعة سيبزُغ الفجر، وهكذا يكون لدي ساعتين من الإنتظار لأرى ضوء النهار.

فى الخارج لا تزال العاصفة تعوي، والمطر ينهمر باستمرار على النوافذ الصغيرة، لكن في الداخل كان الهواء ساماً، والرائحة النتنة غالبة، لم أستطع سماع أو رؤية القط، وحاولت التفكير في أشياء أخرى، لكن مسألة واحدة كانت قوية كفاية لتُهيْمن على ذهني في وضعي الفظيع هذا، لا أستطيع التفكير إلا في ابن عمي الشرير، في نفاقه الذي لا يماثله نفاق، في كراهيته الخبيثة لي، والمتوارية خلف وجهه البشوش؛ الذي يُخبئ وراءه روح قاتل من العصور الوسطى.

بينما أنا منهمكاً في التفكير، بدأت الأمور تزداد وضوحاً في رأسي، وفهمت كيف رتّب هذا الشرير لكل شيء بخبث، ومكر، وكيف أظهر للجميع أنه آوى لفراشه، ونام كما بقية أهل البيت، ولديه شهود يؤكدون ذلك.

وبعدها، ودون أن يراه أحد، خرج من غرفته متسللاً، وأغراني بالمجيء معه إلى العرين للاطمئنان على القط، وحبسني هنا.

ستكون قصته بسيطة، ومقنعة، فسوف يقول أنه تركني في غرفة البلياردو قبل أن يدخل غرفته، لأكمل سيجاري، وأنا الذي نزلت إلى عرين القط من تلقاء نفسي، وأني دخلت غرفة القط دون أن ألاحظ أن القفص كان مفتوحاً، فأمسك بي القط حينها، وبعد هذه القصة كيف سيُتهم بهذه الجريمة؟ ربما ستدور حوله الشبهات لكن دون وجود دليل أو إثبات أبداً!

مرت هاتين الساعتين ببطءٍ مرعب! وفجأة، سمعت صوت خفيض، وخشن! فافترضت أن الوحش يلعق فرائه، ولعدة مرات لمعت هاتك العينان الخضراء البراقة في الظلام، لكن لم تكن نظرتها ثابتة، فازداد أملي في أن الوحش نسى وجودي أو تجاهله.

أخيراً وصل بصيص نور خافت من النافذة الصغيرة، في البداية رأيت النور على هيئة نقطتين صغيرتين رماديتين ارتسمتا على الحائط الأسود، ثم تحوّل الرمادي إلى أبيض، واستطعت رؤية رفيق محبسي المتوحش مرة أخرى، وهو أيضاً رآني.

أصبح الآن مزاجه أكثر عنفاً، وعدوانية، أكثر من آخر مرة رأيته فيها بالأمس، فبرودة الصباح أزعجته، وبالتأكيد كان جائعاً، وهذا تسبب له في إزعاج إضافي، وبزئيره المستمر أخذ يهرول صعوداً، وهبوطاً في جوانب الغرفة بعيداً عن ملجئي فوق القفص، شعيرات شاربه منتصبة، وذيله يتأرجح، ويضرب كسوط.

بينما يستدير في أركان الغرفة، دائماً ما ترميني عينيه المتوحشتين بنظرة تهديد مرعبة، حينها عرفت أنه يريد قتلي؛ لكن حتى في تلك اللحظة الرهيبة، وجدتني معجباً بجمال هذا الكائن الشيطاني! معجباً بطولِه، بحركات عضلاته المتماوجة المهيبة، بلمعان فرائه البديع الفاقع اللون النابض بالحيوية، حتى لسانه الوردي الرطب المتدلي من بين فكيه الضخمين الأسودين.

وطوال سعيهِ المهرول صعوداً، وهبوطاً في الغرفة، وكلما ارتفع صوت زئيره بتهديد متواصل لي، كنت أعرف أن الكارثة وشيكة.

لكن هذه أسوأ ساعة لمقابلة الموت، فالطقس بارد جداً، وأنا في وضع غير مريح على الإطلاق، وأرتجف في ملابسي الخفيفة فوق شبكة العذاب التي أستلقي عليها هذه، حاولت تشجيع نفسي، وتحسين معنوياتي، وفي الوقت نفسه، ومع كل الصفاء الذهني الذي يتجلى لرجلٍ بائس في مثل هذا الوضع المزري، حاولت إيجاد أي وسيلة ممكنة للهرب.

وبالفعل أتت لحظة الصفاء الذهني بأكلها، فكّرت في وسيلة النجاة الوحيدة أمامي، بإرجاع واجهة القفص للوراء، حيث مكانها مرة أخرى، وحينها سأجد ملاذاً من خلفها، لكن هل سأستطيع إزاحة واجهة القفص هذه؟ خاصة، وأنا بالكاد أجرؤ على التحرك خوفاً من جذب المخلوق إليّ.

ببطء، ببطء شديد، مددت يدي للأمام، وأمسكت بحافة واجهة القفص، من الشريط الأخير الذي يبرز من الحائط، وأدهشني أنني استطعت رغم ارتعاشتي الإمساك بالحافة، بالتأكيد كانت يدي، وكامل جسدي يرتجف من كل هذا الإنفعال، بالتأكيد كان التشبث بهذا الشريط الأخير للواجهة صعباً جداً، لكني ثابرت، وسحبته مرة أخرى، حتى تحرّك ثلاثة بوصات، من الواضح أن هذه الواجهة تتحرك على عجلات، فسحبتها مرة أخرى، وحينها قفز القط!

قفزته سريعة جداً، ومباغتة؛ حتى أني لم أره، وهو يقفز؛ أنا ببساطة سمعت زمجرته الوحشية، وبعدها بثانية واحدة، وجدت العيون الصفراء النارية اللامعة، والرأس الأسود المسطح، واللسان الأحمر الرطب، والأسنان المصفوفة البيضاء، كلها وصلت إليّ.

ومن قوة اصطدام المخلوق بقضبان الشبكة الذي أستلقِي فوقها، اهتز، واهتزت معه الشبكة، حتى إني فكرّت - بقدر ما استطعت التفكير حينها - أن القضبان ستقع، تأرجح القط للحظة، واقتربت رأسه، وكفوفه الأمامية جداً مني، أما قوائمه الخلفية كافحت، وتشبثت بحدة لتجد موضعاً تقبض عليه على الحافة.

سمعت تتطاير المخالب، وهي تحاول التشبث بأسلاك القفص، وأصابتني رائحة أنفاسه بالغثيان، لكن القط أخطأ في تقدير الموضع الذي تشبث فيه؛ فلم يستطع الصمود.

ببطء، وزمجرة غضب مخيفة، وبجنون، حفر خدوش على القضبان، تأرجح القط للخلف، وسقط بقوة على الأرض حتى أصدر ارتطامه دَوِيّ.

وبهدير مرعب، وقف، واستمر في الدوران حولي، ثم جثم على الأرض في وضع استعداد للقفز مرة أخرى.

أعرف أن اللحظات القليلة المقبلة ستقرر مصيري، فقد تعلّم المخلوق من تجربته الأولى، وربما لن تخطئ حساباته هذه المرة؛ لهذا وجب عليّا التصرف سريعاً، وبلا خوف هذا لو كنت أريد فرصة للنجاة، والحياة.

وضعت الخطة في لحظة، ونفذتها فوراً؛ خلعت معطفي، وألقيته على رأس الوحش فأعميته، وفي اللحظة نفسها نزلت على الحافة، وأمسكت طرفها الأمامي، وسحبتها بكل قوة، وإصرار محموم من على الحائط.

لانت شبكة واجهة القفص، وصار سحبها أسهل كثيراً مما توقعت، اندفعت عبر القفص، وأنا أمسك طرف الواجهة هذه؛ لأغلقها حتى الطرف الآخر، بينما أسرع عبر الغرفة رأيت أنه لو كان حظي وضعني في الجانب الآخر من الشبكة؛ لكنت خرجت دون عَناء، تركت بضعة بوصات حتى أستطيع الخروج منها، وهكذا أغلقت على القط القفص وحده.

كانت تلك اللحظة كافية ليتخلص القط من المعطف فوق رأسه، وحاول القفز مرة أخرى تجاهي، حشرت جسدي خلال فرجة الثلاثة بوصات، وأغلقت الواجهة ورائي، لكنه أمسك بساقي قبل أن أستطع سحبها بالكامل.

ضربة واحدة من مخلبه القوي الحاد مزقت ساقي؛ فكانت تشبه قطعة خشب حُفرت بمنشار، وبعدها ظللت أنزف حتى فقدت الوعِي، كنت مستلقياً على

القش القذر، ويفصلني عن هذا الكائن الشرس صفاً من القضبان المنقذة، التي تشبثت بها، واندفعت بينها.

كنت مصاباً حتى عجزت عن الحركة، وفاقداً للوعي حتى عجزت عن الشعور بالخوف، لم أقوَ إلا على الاستلقاء، ميتاً أكثر مني حياً، وأراقب القط.

لم يستسلم القط؛ بل راح يضغط بصدره القوي العريض الأسود على قضبان واجهة القفص، ويمد كفوفة الضخمة الملتوية بكل قوة، ليصل إليّ من خلالها، تماماً كما رأيت قط من قبل يفعل في مصيدة الفئران، ورغم أنه مزق ملابسي، إلا أنه لم يستطع النيل مني.

كنت من قبل قد سمعت عن التأثير المخدّر الغريب الذي يحدث للجرحَى، الناجم تحديداً عن الإصابات جراء هجوم الحيوانات الآكلة للحوم، وها أنا الآن أغوص في غياهب هذا المخدّر كلياً.

عندما فقدت الإحساس بذاتي، وفقدت اهتمامي بما إن كان القط فشل أو نجح في محاولاته للوصول إليّ، والت، كانت تشبه لعبة، وأنا أشاهدها، بعدها، وتدريجياً، غاب عقلي، تاه في أحلام غريبة غامضة، كان بطلها كلها ذاك الوجه الأسود، واللسان الأحمر للقط الرهيب، هكذا ضاعت ذاتي في حالة من الهذيان السعيد، من الراحة المباركة الرائعة لهؤلاء الذين يعانون من ألم شديد.

فيما بعد أدركت إني غبت عن الوعي لمدة ساعتين، وما أيقظني سوى النقرات المعدنية الحادة، التي بدأت بها تجربتي الفظيعة، عرفتها، تلك هي نقرات القفل الزنبركي، لكن، وقبل أن تصحو حواسي تماماً لفهم ما أراه، أدركت أني أمام الوجه المستدير الخيّر لابن عمي، والذي كان ينظر عبر الباب المفتوح.

من الواضح أن ما رآه صعقه، فقد كان القط هناك رابض على الأرض، وأنا ممدداً في المقابل على ظهري، وأكمام قميصي داخل القفص، وبنطالي ممزق، وغارقاً في بركة كبيرة من دمائي.

الآن، تجلت لي دهشته، عندما رأيت وجهه بوضوح حالمَا سقط عليه نور شمس الصباح، ظلّ لوهلة محدقاً بي، وبعدها دخل الغرفة، وأغلق الباب خلفه، اقترب مني، وتفحصني ليرى ما إن كنت ميتاً.

لا أستطيع الجزم بما حدث بعدها، فلم أكن بوضع يسمح لأشهد أو أُسجل مثل تلك الأحداث، كل ما أستطيع قوله إنني فجأة كنت واعياً لوجهه، وهو يُرفع عني، ويَنظر إلى قطه المتوحش، وصاح يُحدثه بسرور قائلاً:

- رائع تومي العجوز، رائع أنت تومي.

وبعدها اقترب من قضبان القفص، ولا يزال ظهره ناحيتي، ثم أكمل حديثه للقط، وقال:

- اجلس أيها الوحش الغبي! اجلس، ألا تعرف سيدك؟

حينها، ورغم ارتباك، وتشوش ذهني، تذكّرت كلماته عندما حكى لي، كيف سيُغيّر طعم الدم البشري هذا الوحش، ويحوّله لشيطانٍ مُدمن على هذه الدماء، ودمائي تكفّلت بهذا الواجب، لكن ابن عمي كان عليه دفع الثمن.

صرخ مرتعباً:

- ابتعد، ابتعد أيها الشيطان! بلدوين، يا بلدوين، ياالله.

صرخ بتلك الجملة، ثم سمعته يقع، ويقوم، ويقع مرة أخرى، ثم سمعت صوتاً يشبه تمزيق ملابس.

بدأ صوت صراخه يخفت حتى اختفى تماماً وسط زمجرة الوحش، وبعدها، وبعدما ظننت أنه مات، رأيت مشهداً كما لو كان كابوساً يراودني، رأيت شخصاً مغموراً بالدماء، ممزق الثياب يركض بجموح في أنحاء الغرفة، وتلك كانت آخر لمحة رأيتها قبل أن أغيب عن الوعي مرة أخرى.

استغرق شفائي عدة أشهر، في الحقيقة لن أستطيع أبداً القول بأني شفيت كلياً، لأنني وحتى نهاية حياتي سأحمل على جسدي ندوب الغُرز هذه؛ كعلامة دالة على الليلة التي قضيتها بصحبة القط البرازيلي.

لم يستطع السائس بلدوين، وبقية الخدم معرفة ما حدث، فعندما استدعتهم صرخات موت سيدهم، وجدوني خلف القضبان، وبقاياه، أو ما اكتشفوا فيما بعد أنها رفاته، التي كانت في قبضة الوحش الذي رباه هو بنفسه.

في البداية أوقفوه بعصا حديدية ساخنة، وبعدها أطلقوا عليه النار من فتحة الباب قبل أن يتمكنوا أخيراً من تخليصي.

نُقلت إلى غرفة نومي، وهناك، وتحت سقف بيت من حاول قتلي أقمت لعدة أسابيع بين الحياة، والموت، أحضروا جراحاً من «كليبتون»، وممرضة من لندن، وخلال شهر استطعت أن أحمل إلى المحطة، ومنها نُقلت عائداً إلى مبنى «جروسفينور مانيسونز»

ذكرى واحدة من هذه المأساة حاضرة في رأسي أكثر من غيرها، والتي ربما سيكون مشهداً بانودرامياً دائماً، ويستحضره عقلي الهاذي باستمرار من شدة الإنفعال، ما لم يتم معالجة هذه الذكرى في رأسي.

تلك الذكرى عن إحدى الليالي التي غابت فيها الممرضة، فُتح الباب، وتسللت منه امرأة طويلة ترتدي ثوب الحِداد الأسود، إلى داخل الغرفة، اقتربت مني، وعندما انحنت قربي رأيت وجهها الشاحب، وعلى ضوء الليل الخافت؛ أدركت أنها المرأة البرازيلية، زوجة ابن عمي، تدقق النظر في وجهي، وباهتمامٍ شديد، وكانت تعبيراتها أكثر لطفاً من أي مرة رأيتها فيها.

- هل أنت واعٍ؟

سألتني.

هززت رأسي بالكاد، فأنا حقيقةً كنت لا أزال ضعيفاً.

- لا عليك، أنا فقط أردت أن أُخبرك أنك المُلام الوحيد على ما حدث، ألم أحذرك، وأبذل قصارى جهدي لإنقاذك؟ منذ اللحظة التي وطأت قدميك فيها هذا البيت، وأنا أحاول إبعادك بكل الوسائل لتتفادَى خدعة زوجي، حاولت عدة مرات إنقاذك منه، كنت أعرف أن لديه هدفاً قوياً، ومصيرياً يدفعه لدعوتك لبيتنا، وعرفت أنه لن يتركك تخرج من هنا أبداً، فلا أحد يعرفه كما عرفته أنا، أنا التي عانيت معه العذاب، ولم أجرؤ على إِخبارك بهذا، كان سيقتلني لو حكيت لك شيء، لكني فعلت كل ما بوسعي من أجلك، لكن الآن انقلبت الأمور كلياً، فأنت أمسيت، ودون أن تدري، أفضل صديق لي، الصديق الذي لم أحظَ به في حياتي؛ فقد حررتني، وأنا التي تخيلت أنه لن يحررني من هذا الرجل، وتعذيبه لي سوى الموت، يؤسفني أنك تأذيت لهذه الدرجة، لكن لا أستطيع لوم نفسي على ما حدث، فكما قلت لك سابقاً أنت غبي، وقد أثبت بالفعل إنك غبي.

وبعدها انسلت تلك المرأة الوحيدة الغارقة في الأسي خارج غرفتي، ولم أرها بعدها قط؛ فقد عادت مع كل ما تبقى من أملاك، وثروة زوجها إلى بلادها، البرازيل، ثم سمعت بعد فترة إنها تعيش فى ولاية بيرنامبوكو.

لم أتعافَ تماماً إلا بعد عودتي إلى لندن بفترة، حينها أعلن ليَ الأطباء أني تحسنت كفاية لأعود لعملي، لكن لم يكن هذا بالإعلان الذي أرحب به كثيراً، فمعنى أني تعافيت، أن يبدأ الدائنين بالتوافد عليّ.

لكن خاب ظني هذه المرة، وكان أول الزائرين هو محاميّ «سامرز»، تهلل وجهه عندما رآني، وقال:

- أنا سعيد جداً لرؤية سيادة اللورد بحالٍ أفضل، أنتظرك منذ وقت طويل لأكون أول المهنئين.

- ماذا تقصد، سامرز؟ ليس هذا وقتاً مناسباً للمزاح.

- أنا قصدت ما قلته بالضبط، فإنك أضحيت اللورد سوثرتون منذ ستة أسابيع مضت، لكني أرجأت إعلامك خوفاً من إعاقة تعافيك.

لورد سوثرتون أحد أغنى المُلّاك في إنجلترا! أنا لا أصدق أذني، وفجأة، تذكّرت المدة المنقضية، وكيف تزامنت مع إصابتي، فسألت المحامي:

- أظن أن اللورد سوثرتون تُوفيّ تقريباً في نفس الوقت الذي أُصبت أنا فيه، أليس كذلك؟

- مات في نفس يوم إصابتك تماماً.

بينما أتحدث نظر إليّ المحامي نظرة جدية لرجل فهم الحقيقة، وقد اقتنعت حينها بذكاء هذا الرجل، فقد خمّن الحقيقة وراء تلك القضية بأكملها، صمت، وانتظر لحظة حتى أؤكد له على تخميناته، لكني لا أرى فائدة من إعلان هذه الفضيحة العائلية.

وأكمل المحامي كلامه، وعيناه تعبّران عن مدى فهمه لماهية ما حدث، وحكى لي خيوط الخدعة من أولها، وقال:

- نعم، تلك كانت صدفة غريبة جداً أن تصاب يوم مماته، أنت بالتأكيد تعلم أن ابن عمك إيفرارد كينج هو الوريث التالي للورد، والآن، لو كنت أنت الذي مزّقه هذا النمر بدلاً عنه، أو أياً كان ما سيحدث لك، حينها، وبالتأكيد سيصبح هو وريث لورد سوثرتون في الوقت الحالي.

- صح، بلا ريب.

أنا قلت.

- هو اهتم بتلك المسألة، وخطط لها من قبل، وقد علمت أنه استأجر خادم اللورد سوثرتون، واتفق معه على أن يدفع له أموالاً مقابل أن يُرسل الخادم له برقية كل بضع ساعات، يُعلمه بحالة اللورد، وحدث هذا الاتفاق أثناء زيارتك له هناك، أليس من الغريب أن يهتم، ويتمنى الإطلاع على حالة عمه حينها، ألم يكن هذا إلا لأنه يعرف أنه ليس الوريث الوحيد، وأنك تعوق طموحه في الميراث؟

قال المحامي.

- غريب جداً ما حدث! الآن، أحضر لي فواتيري، ودفتر الشيكات الجديد، وسنبدأ بترتيب الأمور في الحال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

2

رعب كهف

«بلوجون جاب»

تم العثور على كُتيّب الحكاية التالية، والخاصة بالدكتور «جيمس هاردكسيل» والذي تُوفيّ نتيجة لمرض السُل الرئوي في 4 فبراير 1908، في أعالي «كوفنتري فلاتس» جنوب كينجستون.

بالنسبة لمن كانوا على صلة وثيقة بالدكتور، يرفضون تماماً إبداء أي رأي فيما دُوّن في أوراق هذا الكُتيّب، واتفقوا بالإجماع، وأكدوا على رصانة عقل الرجل، وتمسّكه بالمنهج العلمي، وإنه لا يُعير أي وزن لما يُصدر عن الخيال، لذا، فمن المُستبعد أن يكون صاحبهم اخترع مثل هذه السلسلة من الأحداث الماورائية، وغير المنطقية إطلاقاً.

وردَت كتابات الطبيب في مظروف مغلق، يحتوي على تسجيلات قصيرة لبعض الملابسات، والأحداث التي وقعت بالقرب من مزرعة الآنسة «آلرتون» في شمال غرب «ديربشاير» في ربيع العام الماضي، وكُتب على ظهر المظروف المختوم بالقلم الرصاص العبارة التالية:

«عزيزي ساتون

قد يُهمك، أو حتى يؤلمك أن تعرف إن شكوكك القوية التي سمعت بها، ورددت بها على قصتي التي ذكرتها لك من قبل، منعتني من فتح فمي بكلمة عن هذا الموضوع معك مرة أخرى، وقد دوّنت كل شيء، لأترك هذه السجلات بعد موتي، للغرباء الذين آمل أن يُوَلوني ثقة أكبر مما حظيت بها من أصدقائي»

لكن كل التحقيقات فشلت في الوصول إلى معرفة من يكون «ساتون» هذا، ولا نغفل ذِكر أن زيارة المرحوم إلى مزرعة «آلرتون»، وطبيعة الرعب المقيم فيها هناك، بغض النظر عن تفسير الطبيب لهذا الرعب، إلا أن هذه الزيارة، والرعب مؤكدان تماماً، ولا ريب فيه.

بعد هذا التمهيد سوف أعرض ما دوّنه الطبيب وجاء في أوراقه بالضبط، والذى كُتب على شكل مذكرات، وبعض المداخلات من حينٍ لآخر التي أطنب في كتابتها، والقليل منها مُحيَ تماماً.

17 إبريل

بدأت بالفعل أشعر بفائدة هواء المرتفعات البديعة، فمزرعة الآنسة «آلرتون» حيث أُقيم ترتفع عن سطح البحر بحوالي أربعمائة وعشرون قدم، ولهذا الجو هناك دائماً ممتاز، ومنعش.

لكن، وبغض النظر عن السُعال الصباحي المزعج، إنما شُرب كوباً من الحليب الطازج يومياً، وأكل لحم الضأن المُربى في المزرعة، مع القليل من الراحة، كانت كلها عناصر اجتمعت لزيادة الوزن، وأظن أن هذا سيكون من دواعي سرور «سوندرسون»

الأختين الآنستان «آلرتون» جذابات، وساحرات بشكل خاص، وفي غاية اللطف، كلتاهما خادمات عجائز يكْدحن في العمل، لإدارة المزرعة رغم ضآلة أجسادهن، ومستعدات لوهب قلوبهن التي لم يحتلها، ويسعدها الزوج، والأطفال، لشخص مريض، وغريب مثلي.

لكن هاتين الخادمتين العجوزتين هما أكثر الأشخاص إفادة، فهن إحدى أهم وسائل الحماية الاجتماعية، فالبعض يقول أن وجود هاتين السيدتين غير ضروري، لكن ماذا كان سيفعل رجلاً عاجزاً مسكيناً من دون لطف تواجدهن؟ بالمناسبة، كانت بساطتهن السبب الأساسي الذى دفع «سوندرسون» للتوصية بمزرعتهن.

فقد ترفّع البروفيسور عن عزة نفسه، وآمن أنه في شبابه لم يكن أسمى من هذه الغربان الناعقة في الحقول.

تُعتبر المزرعة، وحقولها من أكثر الأماكن عُزلة، والتجول في أنحائها سيحقق أقصى درجات المتعة، تتكون المزرعة من مساحة أراضي الرعي الممتدة في قاع الوادي المتعرّج، وعلى جانبي المرعى تمتد أودية الحجر الجيري، المكوّنة من صخور ليّنة جداً، حتى إنك تستطيع تفتيتها بين يديك.

أيضاً أتصور أن كل هذا الريف مجوفاً! فلو تخيلت أنك استطعت قرع هذه المنطقة بمطرقة عملاقة فسيدوي صوتها كالطبل، وأُرجح أن السبب في ذلك هو اجتماع كل هذا العدد من الكهوف الضخمة، وتجويفها الممتد في أعماق الأرض.

لابد، وأن هذه الأراضي تضم حول جميع جوانبها مجاري مائية أيضاً، تجري داخل قلب الجبل نفسه، لكن لا تظهر أبداً، وأينما تذهب ترى الفتحات الكبيرة بين الصخور، وعندما تمر خلالها تجد نفسك داخل كهوف عملاقة تهب منها الريح داخل أحشاء الأرض.

كنت أمتلك مصباح دراجة صغير، المصباح مصدر بهجتي، ودائماً ما يسعدني حمله أثناء نزهاتي وسط هذه العزلة الغريبة، وأسعد أكثر عندما أرى سطوع

لونه الفضي، والأسود، وتأثيره البديع عندما يلقي بنورِه على الصخور الجيرية الهابطة، التي تكسو أسطح المرتفعات، عندما تطفئ هذا المصباح في دُجى الليل الأكثر حلكة، وتنيره مرة أخرى، سيعرض لك مشهداً من ليالي ألف ليلة وليلة.

لكن هناك واحدة من الفتحات الموجودة في الأرض، التي ذكرتها تحظى باهتمام خاص، فتلك الفتحة بالذات لم تكن من صنع الطبيعة كالبقية، بل كانت من حفْر البشر.

فى بداية إقامتي في الريف لم أسمع أبداً عن كهف «بلوجون جاب»، لكنني أعرف أن اسم الكهف كان لمعدن نفيس، وجميل، ونادر، بظلال بنفسجية، ولا يوجد إلا في مكانين فقط في العالم، ومن شدة نُدرة هذا المعدن الباهظ، قد تُباع المزهرية الواحدة منه بسعر خيالي، وقد سبق واكتشفه الرومان بغريزتهم الاستثنائية، التي أوصلتهم لاكتشاف مكان المعدن في هذا الوادي، وحفروا بشكل أفقي عميق في جانب الجبل.

ثم صنعوا فتحة منجم الـ «بلوجون جاب» بدقة، حفروا الفتحة على شكل قوس من الصخر الأملس، ومن حول القوس نمت الأشجار الكثيفة.

مهّد العمال الرومان ممر الكهف جيداً، وتقاطع مع عدداً كبيراً من الكهوف التي نحتتها، وصَقلتها المياه الجارية بالأسفل، والتي يسهل عليها نحت الحجر الجيري، ولهذا إن دخلت إلى كهف «بلوجون جاب» إما أن تُعلِّم طريقك بعدد كبير من الشموع الجيدة، أو إنك لن ترى نور النهار مرة أخرى أبداً.

حتى الآن أنا لم أتوغل عميقاً في الكهف، لكن فى هذا اليوم بالذات، وقفت أمام فم النفق المقوس، مدخل الكهف، ونظرت إلى التجاويف السوداء فى عمقه، وقررت إني عندما أسترد صحتي سوف أخصص بعض أيام العطلات للعودة، واكتشاف أعماق هذا الكهف الغامض، وأكتشف بنفسي العمق الذي وصل إليه الرومان داخل تلال ديربيشاير.

غريب كيف يؤمن المواطنين المحليين بالخرافات! وأقول هذا بعدما كانت لديّ فكرة أفضل عن «أرميتاج» الشاب المتعلم، والذي يتمتع بشخصية مميزة، وحظِيَ بمكانةٍ في الحياة أفضل كثيراً من غيره، لكني غيّرت رأيي فيه لِما سأقصُه عليك تالياً.

كنت أقف عند مدخل كهف «جون بلو جاب» عندما جاء إليا» «أرميتاج» عبر الحقول المجاورة، وقال

- حسنا دكتور، أنت لست خائف!

- أخاف! مما أخاف؟

أجبته

- من هذا.

وأشار بإبهامه ناحية السرداب المظلم.

- إن الرعب يعيش داخل بلوجون جاب.

لن تصدق السهولة التي تنتشر بها الأسطورة في هذا الريف النائي المنعزل! ثم سألته عن أسباب اعتقاده الغريب هذا، وكانت الإجابة على ما يبدو، أن بداية ظهور، وانتشار الأسطورة بسبب فقدان بعض الأغنام من حينٍ لآخر، وهي ترعى في الحقول، أو على حد قوله «اختفت دون أثر»

عندما فسّرت له أن فقدان الأغنام ربما يكون، لأنها شردت، وضلت طريقها بين الجبال، حينها لم يتقبل سماع مثل هكذا تفسير، وبعدها قال أنهم في إحدى المرات عثروا على بركة دماء، وبعضاً من خصلات صوف الأغنام، وهذه أيضاً كان يمكن إيجاد تفسيراً طبيعياً جداً لها، فأضاف، أن كل الليالي التي اختفت فيها الأغنام؛ كانت ليالي مظلمة غائمة غاب فيها القمر.

رددت حجته الأخيرة بتفسير أكثر منطقية، بأن الليالي المعتمة هي أنسب الأوقات لسرقة الأغنام، بل، ومن الطبيعي أن يختار السارق مثل هذه الليالي، وما يثبت صحة كلامي هو تناثر الأحجار على مسافة بعيدة، وبعض الفتحات الإضافية، التي يظهر أنها من صنع البشر.

أخيراً، بذل «أرميتاج» محاولته الكبرى، وبكل حَسم لدعم صحة آرائه عن الأسطورة، فأخبرني أنه بالفعل يسمع صوت المخلوق، وبإمكان أي شخص سماعه، إن مكث لوقت طويل كفاية أمام مدخل الكهف، ولكي يؤكد لي على تصريحه الأخير؛ وصف صوت المخلوق بأنه زئير بعيد بصوتٍ ضخم.

وحينها لم يسعنِ إلا أن أبتسم من قوله، فأنا أعرف تماماً طبيعة الأصداء الغريبة التي يمكن أن تصدرها مجاري المياه الجوفية؛ خاصة تلك التي تتوسط شقوق الحجر الجيري.

لكن عدم تصديقي لحديثه أزعجه كثيراً، حتى أنه استدار فجأة، وتركني وحيداً مصدوماً من فِعله.

والآن نأتي للنقطة الغريبة حول المسألة برمتها، فأنا شخصياً، عندما كنت أقف أمام مدخل الكهف أفكر، وأقلّب في ذهني حديث «أرميتاج»، وكيف أن تفسير كل حججِه بأسباب طبيعية كان سهلاً جداً، وإذ فجأةً، ومن أعماق النفق بجانبي، أسمع صوتاً غير عادي.

كيف أصِف هذا الصوت؟ أولاً، يبدو أنه يأتي من مسافة بعيدة جداَ، من أعمق نقطة في أحشاء الأرض، ثانياً، وبالرغم من بُعد هذه المسافة؛ إلا أن الصوت كان عالياً للغاية، وأخيراً، لم يكن الصوت يشبه الدوي، ولا صوت تحطيم، لكنه كان أقرب ليكون، كما لو أن أحداً سقط في المياه، أو الصخور هي المتساقطة؛ لكن بصوت أنينٍ عالٍ، مرتجف، ومهتز، تقريباً يشبه صوت صهيل الخيول.

يقيناً، كانت التجربة أكثر من رائعة، والتي، وسأعترف، للحظة أضفَى حديث أرميتاج على هذه التجربة معانٍ، ودلالات جديدة.

ظللت منتظراً أمام مدخل كهف «بلوجون جاب» لأكثر من نصف ساعة، لكني لم أستطع سماع الصوت مرة أخرى؛ فعدت بعدها إلى بيت المزرعة بدلاً من أن أجبر نفسي على التفكير طويلاً فيما حدث.

لكنني بالتأكيد اتخذت قراراً باكتشاف الكهف حالما أسترد عافيتي، ورغم إني أعلم أن تفسيرات «أرميتاج» لهذا الصوت أسخف من أن تُناقش، إلا أن الصوت كان بالفعل غريباً جداً، ولا يزال يرن في أذني بينما أكتب هذه السطور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



20 آبريل

قمت في الأيام الماضية بالعديد من الرحلات لاستكشاف كهف «بلوجون جاب»، وقطعت بداخله مسافة قصيرة، لكن مصباحي كان أصغر، وأضعف من أتجرأ، وآمن على نفسي في التوغل لأبعد من ذلك، لذا، قررت أن أقوم بالعمل بطريقة منهجية.

وأثناء رحلاتي القصيرة، لم أسمع أي صوت على الإطلاق، حتى أني قاربت على تصديق اعتقاد ما طرأ على ذهني، بأني كنت ضحية بعض الهلوسات، التي حسبَ ما أعتقد، نتجت عن محادثتي مع» «أرميتاج».

رغم أن الفكرة برمتها، بالتأكيد، سخيفة، لكني لازلت معترفاً بأن تلك الشجيرات عند المدخل المقوس للكهف، تبدو مُنحنية، كما لو أن بعض المخلوقات الثقيلة الضخمة اتخذت طريقها بالقوة عبرها.

لم أحدّث الأختين «آلرتون» بشيء من القصة، فهما بالأساس تؤمنان بالخرافات بما يكفي، لكني اشتريت بنفسي بعض الشموع، وبعضاً من الأدوات التي يستلزمها الاستكشاف.

هذا الصباح لاحظت العديد من خصلات صوف الأغنام، وبعضها خصلات تلطخت بالدماء، وملقاةٌ بالقرب من الشجيرات القريبة من مدخل الكهف، وكالعادة المنطق يقول إن الأغنام التي تتجول داخل مثل هذه الأماكن الصخرية، فعلى الأرجح ستجرح نفسها، لكن الآن، وبينما أرى تناثر اللون الأحمر القاني أصابتني صدمة مباغتة، وللحظة وجدت نفسي أرتعد خوفاً، وأتراجع مذعوراً خارجاً من الكهف الروماني العتيق.

على ما يبدو إني أشم رائحة أنفاس قذرة تهُب من العمق الأسود الذي أُطل عليه، فهل بالفعل هناك احتمال لوجود بعض الكائنات المجهولة هناك؟ هل هناك بعض الموجودات المرعبة تترصد من مكمنها بالأسفل؟

في حياتي الماضية، بفترة قوتي الجسدية ما كان يحدث لي أبداً أن أشعر بمثل هذا الخوف أو الرهبة، لكن، وكما هو واضح، أن الإنسان يُصبح أكثر عصبية، وأكثر توهماً عندما تتدهور صحته.

لحظة الخوف تلك، زعزعت قراري، ووقتها كنت على استعداد للتخلي عن عزمي على استكشاف سر المنجم القديم، هذا لو كان هناك سراً بالأساس، للأبد، ودون حل.

لكن عندما جَنّ الليل، عاودتني الحماسة، والفضول مرة أخرى، وباتت أعصابي أكثر ثباتاً، وصِرت واثقاً أنني في الغد سأقدر على قطع شوطاً بعيداً

في المسألة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

22 أبريل

دعني أحاول سَرد تجربة أمس الاستثنائية بدقة قدر المُستطاع، بدأت الرحلة بعد الظهر، انطلقت في طريقي قاصداً كهف «بلوجون جاب»، وسأعترف بعودة مخاوفي السابقة بعدما رأيت من مدخل الكهف مدى عمقه، وتمنيت لو كنت اصطحبت معي رفيقاً ليشاركني هذا الكشف.

أخيراً، استجمعت قوتي، وأوقدت شمعتي، وشققت طريقي عبر الأغصان، ودلفت داخل الفتحة الصخرية.

نزلت بزاوية حادة لحوالي خمسين قدم، ووجدت أن الأرض مغطاة بالأحجار المُكسّرة، ومنها إلى ممر طويل مستقيم شُق عبر الصخر الصلب، بالتأكيد أنا لست عالِم جيولوجي، لكن بِطانة هذا الممر كانت من مواد أكثر صلابة من الحجر الجيري، أنا متيقن من هذا.

ومن عند هذه النقطة، مما يدعم اعتقادي، وجدت على امتداد هذا الممر مواضع، حيث أستطيع بالفعل رؤية بقايا أدوات كان عمال المناجم يستعملونها قديماً في أعمال الحفر، وتركوها بوضع، وكأنهم غادروا بالأمس فقط.

أسفل عالم هذا الممر الطويل العتيق الغريب، تعثّرت، فألقى لهب الشمعة الخافت في يدي دائرة من الضوء الواهن حولي، مما جعل شكل الظلال وراء هذه الإضاءة الباهتة، وكأنها مُنذرة مهددة أكثر، وغامضة.

أخيراً وصلت إلى النقطة حيث يُفتح النفق الروماني على كهف للمياه تهالك من قِدمه، الكهف عبارة عن قاعة ضخمة، ومعلقاً بها رقاقات بيضاء طويلة من رواسب الحجر الجيري، من هذه القاعة المركزية استطعت إدراك، ولو بدرجة طفيفة، أن بالكهف عدداً من الممرات القديمة البالية بفعل مجاري المياه الجوفية، قد نَحتت طريقها بعيداً في أعماق الأرض.

كنت أقف هناك وأتساءل عما إذا كان الأفضل ليَ العودة، أم أتجرأ، وأخوض المغامرة، وأغوص في أغوار المتاهة الخطيرة! لحظتها وقعت عيني على شيء عند قدمي، واستحوذ على كامل انتباهي.

لقد كانت المساحة الأكبر من أرضية الكهف مغطاة بأحجار صلبة، أو لعلها طبقة قشرية من الجير، لكن في هذا المكان بالتحديد، يقطر من سقفه الأبعد، مما كوّن طبقة من الطمي الأملس أسفله، ووسط بقعة الطمي طُبع أثرٌ ضخم، أو ربما كان التعريف الأقرب للكلمة هو، لطخة؛ لكن عميقة، وواسعة، وغير منتظمة الشكل، كما لو أن صخرة كبيرة سقطت عليها من الأعلى، لكن لم تكن من صخرة شاردة في المحيط القريب، وعموماً لا وجود لأي جسم أعزو إليه هذا الأثر المطبوع فوق بقعة الطين.

ثم إن هذا الأثر أكبر بكثير ليطبعه أي حيوان محتمل، بالإضافة إلى أنها علامة واحدة فقط، وبقعة طمي بهذا الحجم لم يكن من سبب معقول يغطيها بخطوة واحدة.

وأثناء وقوفي من حيث ركعت لتفحص الأثر الوحيد، ألقيت نظرة من حولي على الظلال السوداء المحيطة بي، ودعني أعترف مرةً أخرى، إني شعرت للحظة بغصة كئيبة جداً، وقُبض قلبي، فبذلت لحظتها كل ما باستطاعتي، واستجمعت قوتِي لأمُدّ يدي المرتعشة التي تحمل الشمعة أمامي.

تمالكت أعصابي سريعاً عندما فكرت، وأدركت مدى سُخف ربط ذلك الأثر الضخم عديم الشكل على بقعة الطين، مع أثر أقدام أي حيوان معروف، حتى الفيل لا يمكنه طبع مثل هذه العلامة، لذا قررت، بناءً على هذا الاستنتاج، ألا أهَاب مجرد مخاوف غامضة لا معنى لها نتجت عن استكشافي.

قبل أن أستأنف البحث، جمعت فكرة لا بأس بها عن التشكيلات الغريبة لصخور الحائط، بعدما رأيت ما أعرف أنه مدخل الكهف الروماني.

من الضروري اتخاذ كل الاحتياطات أولاً، فالكهف الكبير على امتداد بصري بعيداً جداً، ومتقاطعاً بعدة ممرات، تأكدت من وضعي، وطمأنت نفسي بفحص الشموع الاحتياطية في جيبي، وعلبة الثقاب، وبعدها بدأت أتقدم بخُطى بطيئة فوق السطح الصخري غير المستوي للكهف.

وصلت الآن إلى نقطة، حيث واجهتُ فيها كارثة مباغتة عاتية؛ نهر صغير، تيار مياه بعرض حوالي عشرون قدم، يجري عبر الممر الذي أقطعه، فسِرتُ لمسافة قصيرة على طول ضفتِه أبحث عن بقعة جافة أستطيع العبور منها.

أخيراً وصلت لمكان عثرت فيه على صخرة كبيرة، ومسطحة منتصبة بالقرب من وسط النهر الصغير، واستطعت الوصول إليها بخطوة.

تبيّن لي بعد المجازفة بهذا العبور، أن الصخرة مُلقاة بحيث كان شكلها بالأعلى أكبر، وأثقل من قاعدتها، فلما جلست عليها مالت، وأوقعتني في المياه المثلجة، انطفأت الشمعة، ووجدت نفسي أتخبط في الظلام الحالك.

تحاملت على قدمي، ووقفت، كنت مستمتعاً أكثر مني منزعجاً من مغامرتي هذه، بالتأكيد ضاعت الشمعة عندما وقعت، وذهبت مع التيار، لكني كنت أمتلك شمعتين إضافيتين في جيبي، لذا فلم أهتم كثيراً بضياع الشمعة الأولى، أخرجت شمعة أخرى، وعلبة الثقاب لأشعلها، حينها أدركت بؤس حالتي.

فعندما وقعت في المياه غرقت الثقاب، وكان من المستحيل ضرب العود، وإشعَاله، بعدها بقليل أحسست أن يداً باردة تعتصر قلبي.

للظلام هنا قوة مطبقة، ورهيبة، حيث يشعر المرء أن يداً أو جسم صلب يضغط على وجهه، وقفت ساكناً، حاولت بكل عزم المحافظة على ثباتي.

حاولت في ذهني إعادة رسم خريطة لأرض الكهف كما رأيتها آخر مرة لكن للأسف؛ تداخلت الإتجاهات في رأسي، حُجبت بوجود هذا الحائط العالٍ، ولم أستطع الوصول إليها باللمس.

لازلت أذكر بشكلٍ عام، كيف كانت جوانب الطريق، وأين تقع، وتمنيت لو أتحسس الطريق على طول هذه الجوانب حتى أستطيع الوصول إلى مدخل النفق الروماني، تحركت ببطء شديد، وكنت أصطدم بالصخور باستمرار، خلال مَسْعايا البائس هذا.

سرعان ما أدركت كم هو غير مُجدي بل، ومستحيلاً ما أفعل؛ فوسط هذا الظلام المَخمليّ الحالك يفقد المرء كل إحساسه بالإتجاهات فوراً، وقبل أن أُكمل عشرة خطوات تحيّرت، وارتبكت تماماً في الإتجاهات.

في هذا المكان لا يُسمع سوى صوتاً واحداً، صوت تماوج مياه النهر، والذي دلني على مكان المجرى بالتحديد، لكن في اللحظة التي تركت فيها الضفة تُهت كلياً.

من الواضح أن فكرة العثور على طريق عودتي وسط هذا الظلام المُطبق، وخلال متاهة الحجر الجيري هذه، كانت مستحيلة.

جلست على صخرة، وفكرت في مأزقي المشؤوم، فأنا في البداية لم أُعلم أي شخص بنيتي للمجيء إلى -كهف «بلوجون جاب»، وعلى الأرجح لن يأتي أي فريق للبحث عني.

بالتالي كان لابد، وأن أعتمد على نفسي، ومواردي المحدودة لأبتعد عن الخطر، وأملي الوحيد الآن أن أجفف أعواد الثقاب، فعندما سقطت بالنهر، لم يُبلل إلا نصف جسدي فقط، وظل كتفي الأيسر فوق المياه، فأخرجت علبة الثقاب، ووضعتها أسفل إبطي الأيسر، فربما تصد حرارة جسدي هواء الكهف الرطب.

لكن، وحتى مع تنفيذ هذا الحل، لا آمل في الحصول على أي ضوء قبل مرور عدة ساعات، وخلال ذلك لا يسعني سوى الإنتظار.

كان من حسن حظي، إني حشوت جيبوبي بالكثير من قطع البسكويت قبل مغادرتي بيت المزرعة، وهذه البسكوتات هي ما ألتهِمُها الآن بعدما أغمسُها في النهر أسفَلي، والذي كان سبب بؤسي.

بعدما انتهيت من الأكل، ركنت إلى مكان مُريح فوق الصخور، واكتشفت أنه متكئ يصلح لأسند ظهري، مددت ساقي، واستقررت طوال فترة انتظاري، جسدي، وملابسي مبللة بالكامل، أشعر ببرودة شديدة، حاولت التسرية عن نفسي بتذكّر أبحاث العلم الحديث، الذي أوصى بالنوافذ المفتوحة، والسير فى كل الأحوال الجوية، لمن هم في مثل حالتي المرضية.

شيئاً فشيئاً، هدهدتني قرقرة النهر الرتيبة، وبسبب هذا الظلام الدامس غرقت في نعاسٍ غير مريح.

كم طالت فترة نومي، لا أعرف بالضبط، لكن أظن مضى حوالي ساعة أو حتى عدة ساعات، فجأة انتابني الغضب، والانفعال، فجلست على أريكتي الحجرية، وجميع حواسي في حالة استنفار، وتأهب.

هذه المرة، ومن دون أدنى شك سمعت الصوت جلياً، بعيداً جداً، ومميزاً عن صوت قرقرة المياه، مَرّ الصوت بينما صداه لا يزال يرن في أذني، لكن هل كانت هذه أصوات فريق البحث؟ ولو كانت أصوات الباحثين عني؛ فبالتأكيد سيُصيحون مُنادين عليّ، بالإضافة إلى أن هذا الصوت الغامض الذي أيقظني أبعد ما يكون عن الأصوات البشرية.

جلست، ونبض قلبي يتسارع لا أجرؤ على التنفس.

ها هو الصوت يتردد مرة أخرى، وأخرى، ويتكرر! الآن صار متواصلاً، يصدح بلا انقطاع، نعم الصوت متوالي، وصادراً عن كائنٍ ما حي! لكن ما هي ماهية الكائن مصدر الصوت؟ فالصوت يُعطي سامعه انطباع يتصور فيه، أن مصدره عبارة عن كائن بحجمٍ هائل، محمولاً على أقدام أشبه بالأسفنج، مما أعطى صوتاً مكتوماً لكنه يصم الآذان.

لا يزال الظلام حالكاً كما كان دائماً، لكن الصوت، وتواليه منتظماً، وقاطعاً، وكان الصوت يصلني بعد كل سؤال أطرحه على نفسي، مما زاد من برودة جسدي، وانتصبت أطراف شعري، وأنا أُصغي إلى الإقتراب الثابت، والثقيل لوقع الأقدام هذا.

بالفعل كان هناك مخلوق ما قادماً نحوي، وشعرت حينها بسبب سرعة تقدمه أن المرء يمكنه رؤيته في الظلام، جثوت للأسفل على الصخور، وحاولت التقوقع لأخبيء نفسي بينها.

لاتزال خطوات الأقدام تقترب، وفجأة توقفت، وعندها فهمت من صوت القرقرة، والدوران العال، إن المخلوق يشرب من النهر الجاري تحته، ومرة أخرى سَيطر الصمت، ولا يكسره من حينٍ لآخر، إلا صوت الاستنشاق، والنخر الطويل الهادر الصادر عن حجم هائل، وطاقة كبيرة.

هل شم المخلوق رائحتي؟ أم يتشمم رائحة أخرى؟ فأنا شخصياً امتلأت أنفي بالروائح النتنة الكريهة، والفظيعة! وبعدها سمعت صوت خطوات الأقدام مرة أخرى، وهذه المرة كان على نفس جانبي من النهر.

تطايرت الأحجار على مسافة قريبة، حيث البقعة التي أستلقي عليها، بالكاد جرؤت على التنفس، ظللت جاسم على الصخرة حتى كِدتُ أتلاشى فيها، وفجأة سمعت صوت الخطوات تبتعد.

وسمعت صوت تناثر المياه أثناء عبور هذا المخلوق للنهر عائداً، وعندها اختفى الصوت تماماً على بُعد مسافة من الاتجاه الذي أتى منه المخلوق.

ظللت مستلقياً مختبيء بين الأحجار لوقت طويل، فقد كنت مرعوباً؛ لدرجة عجزت معها عن الحركة، فكّرت في الصوت الذي سمعته آتياً من أعماق الكهف، وفكرت في مخاوف «أرميتاج»، وفي ذلك الأثر الغريب المطبوع على بقعة الطمي، والآن، وأخيراً، توصلت لدليل إثبات دامغاً، ونهائياً على ما يمكن به بالفعل الإقرار بوجود وحش لا يمكن تصوره، وجدت الدليل على وجود كائن لا ينتمي إلى بقية مخلوقات الأرض إطلاقاً، مرعباً، ورابضاً في جوف الجبل.

من الطبيعي ألا أقدر على وضع تصور محدد عن شكل المخلوق، ما عدا أنه يملك قدمين خفيفتين، وعملاقتيْن في آن، بينما أنا مستلقياً مكاني احتدم الصِراع بداخلي، بين عقلي الذي يخبرني أنه لا وجود لمثل هذا الكائن، وبين حواسيّ التي تؤكد لي على وجوده بدليل ما سمعته.

أخيراً، أوشكت على حسم هذا الصراع، بإقناع نفسي أن هذه التجربة ما هي إلا جزء من حلم شرير شيطاني، بسبب حالتي غير الطبيعية، فربما يكون ما سمعت مجرد هلوسات.

لكن بقيَت تجربة وحيدة أخيرة، والتي من الممكن أن تزيل كل الشكوك من رأسي، أخرجت علبة الثقاب من تحت إبطي، وتحسستها، على ما يبدو أنها جفت، وتصلبت، وقفت بين شقوق الصخور، وحاولت إشعال العود من العلبة، ولسعادتي اشتعل على الفور.

أوقدت الشمعة، ألقيت نظرة رعب خلفي، نحو أعماق الكهف الغامض، وأسرعت في اتجاه الممر الروماني، وبينما أهرول مررت بلطخة الطمي التي تحمل البصمة الضخمة التي رأيتها من قبل.

الآن أقف مندهشاً مصعوقاً أمامها، بعدما رأيت ثلاث بصمات متشابهة على أرض الكهف بدلاً من واحدة، بأحجام هائلة، غير منتظمة الحواف، وغائرة مما يدل على ضخامة، وثِقل الوزن الذي طبعها.

عصف بي رعب جارف عندها، توقفت، وظلال الشمعة الممتدة في يدي، ووليت هارباً من الرعب على طول الممر الحجري، الذي زادت سرعتي فيه أكثر، ولم أتوقف أبداً، وعلى الرغم من أقدامي خائرة القُوَى، ورئتي الواهنة، إلا أني اندفعت صاعداً المنحدر الصخري الأخير، واخترقت تشابك الأغصان الكثيفة، وألقيت بنفسي مستنزفاً منهكاً فوق العشب الناعم تحت ضوء النجوم الساطعة.

كانت عقارب الساعة تشير إلى الثالثة صباحاً عندما وصلت بيت المزرعة، وقد أصبحت اليوم متوتر الأعصاب، وأرتجف بعد هذه المغامرة الرهيبة، ولم أخبر أي شخص بما حدث حتى الآن.

يجب أن أتحرك بحذر في هذه المسألة، فماذا ستفعل النساء المسكينات الوحيدات، أو هؤلاء الفلاحون الأميون هنا، كيف سيفكرون في هذه التجربة لو أخبرتهم عنها؟ دعني أذهب إلى شخص يقدر على فهمي، ونصحي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



25 أبريل

بعد مغامرتي الرهيبة في الكهف ظللت طريح الفراش لمدة يومين، وسأصف حالتي بمعنى مُحدد للغاية، لقد صُدمت، بعد مروري بهذه التجربة، صُدمت تماماً بقدر بقية الناس في القرية.

ذكرت آنفاً إني بحثت عن شخصاً يمدني بنصيحة، وها قد وجدته، إنه الدكتور «مارك جونسون»، والمقيم على بُعد عدة أميال من المزرعة، وقد أوصاني به البروفيسور «ساندرسون».

تعافيت كفاية حتى استطعت القيادة، إلى أن وصلت إليه، ورويت له التجربة الغريبة التي مررت بها بكل تفاصيلها؛ أصغى إليّ باهتمام، وفحصني بدقة، وأولى عناية خاصة لردود فعلي، وبؤبؤيّ عيني.

لكن بعدما انتهى من فحصه، رفض تماماً مناقشتي في المغامرة، وقال إن ما أحكيه خارجاً كلياً عن اختصاصه، لكنه أعطاني كارت السيد»بيكتون» في مدينة كاسلتون، ونصحني أن أزوره على الفور، وأسرِد عليه القصة بالضبط كما حكيتها له، ووفقاً لنصيحته فإن السيد»بيكتون» هو الشخص الأنسب لمساعدتي، وعلى هذا توجهت من فوري إلى المحطة، وبدأت طريقي إلى المدينة الصغيرة التي تبعد حوالي عشرة أميال.

كما هو واضحاً من اللافتة النحاسية المعلقة على باب المبنى الكبير خارج ضواحي المدينة، أنّ السيد»بيكتون» كان شخصاً ذو حيثية كبيرة.

كنت على وشك رن جرس بابه، عندما اعترت رأسي فكرة، شيء ما أوْعز إليّ أن أعْبر إلى متجر الحي، وأسأل الموظف المسؤول هناك إن كان بإمكانه أن يخبرني أي شيء عن السيد»بيكتون» قبل مقابلته، وقد كان.

- لماذا؟

سألني الموظف بالمتجر.

- إنه أفضل دكتور للأمراض العقلية في ديربشاير كلها، وهنا ملجأه، ومرضاه.

لن تتخيل مدى السرعة التي غادرت بها، بعد أقصر وقت قضيته في كاسلتون، وعدت إلى المزرعة، لاعناً كل المتحذلقون عديموا الخيال، العاجزين عن تخيل أي احتمالية لوجود بعض الأشياء أو المخلوقات التي لم يسبق، وأن عبرت حتى خيال شخص، ولا حتى في الأحلام.

الآن، وبعد كل ما حدث صِرت أكثر هدوءً، وسأعترف أني من قبل لم أتعاطف مع «أرميتاج» أكثر مما تعاطف معي الدكتور جونسون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

27 إبريل

عندما كنت لا أزال طالباً عُرف عني الشجاعة، وحُب المغامرة، أتذكر ذاك الكوخ المسكون بالأشباح في»كولتبريدج»، وذهبت أنا، وأقمت به، هل يكون هذا بسبب التقدم في السن؟ لكن أنا فقط لازلت في الخامسة والثلاثين! أم تُرى أنه المرض الجسدي هو الذي تسبب لي بهذا الاضمحلال؟

بالتأكيد لايزال قلبي يرتعد عندما أفكر في الكهف المرعب فوق التل، ويرتعد أكثر ليقيني أن هناك وحشاً يحتله.

ماذا أفعل؟ لا تمر عليّ ساعة على مدار اليوم إلا، وأناقش هذا السؤال مع نفسي، فإن أنا أخفيت المسألة، ولم أتكلم فيها مع أحد، فسيظل اللغز بلا حل، وإن أنا أعلنت الخبر على الملأ، فسأثير الذعر، والجنون في الريف كله، أو إني سأثير شكوك مطلقة بخصوص قوايا العقلية، وسينتهي بيَ الحال نزيلاً في أحد ملاجئ مرضى الأمراض العقلية.

على العموم، أظن أن أفضل ما أفعله هو الإنتظار، والإستعداد لرحلاتي الاستكشافية القادمة، لكن هذه المرة لابد، وأن تكون الرحلات مدروسة، ومخططاً لها بطريقة أفضل من المرة السابقة.

ولهذا بدأت في تنفيذ الخطوات، سأذهب إلى مدينة»كاسلتون»، وأشتري بعض المستلزمات الأساسية، أولاً، مصباح استلين كبير، وثانياً، بندقية صيد من نوعٍ جيد مزدوجة الماسورة، ثالثاً، شراء عشرات الخراطيش الثقيلة الخاصة بالصيد، والتي بإمكانها إرداء وحيد القرن.

الآن بِت مستعداً لصديقي ساكن الكهف، فقط امنحني صحة أفضل، وبعضاً من الطاقة، وسأحاول التوصل إلى نتيجة عن هذا الكائن.

لكن ماذا يكون؟ وما هي كينونته؟ نعم، هذا هو السؤال الذي يؤرق منامي، لن تتخيل كمّ النظريات التي وضعتها، وتجاهلتها، بسبب عدم منطقيتها كلها، فكل نظرية تخيلتها لا يمكن تصديقها إطلاقاً!

لكن، وحتى الآن، فإن الصرخات، وأثار الأقدام، والمشي في الكهف، كلها أمور جعلتني لا أفكر إلا في أشياء عن العالم القديم، من أساطير التنانين، والوحوش الأخرى.

لكن ألا يمكن أن تكون هذه الأشياء أكثر من مجرد حكايات خرافية كما نعتقد؟ ألا يمكن أن تحتوي هذه الخرافات على شيئاً من الحقيقة التي تكمن وراء الأسطورة، وأنا، ومِن بين جميع البشر الفانيين وقع الإختيار عليّ لكشفها؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

3مايو

لعدة عدة أيام، وبسبب تقلبات طقس الربيع الإنجليزي، ظللت ملازماً البيت، لكن خلال هذه الأيام حدث الكثير من التطورات، بعض الأحداث التي وقعت، وبثت في نفسي شعوراً بأنه لن يقدر أحداً على إنقاذي.

تقلبات الربيع تملأ سمائنا غيوماً، ويغيب عنها القمر، مما يجعل الليالي ظَلماء، والتي هي وِفقاً لمعلوماتي، موسم اختفاء الأغنام.

حسناً، بالفعل اختفت بعض الأغنام! غَنَمَتين ملك للآنسه آلرتون، وواحدة للسيد بيرسون العجوز، وأخرى للسيدة مولتون، أربعة أغنام اختفت في ثلاث ليالي، لم يخلّفوا وراءهم أي أثر، ليعج الريف بعدها بالإشاعات التي تتهم الغجر، وسارقوا الأغنام.

لكن هناك حدث آخر أكثر خطورة من اختفاء الأغنام، وهو اختفاء السيد «أرميتاج» نفسه، خرج من كوخه في وقت مبكر من ليلة الأربعاء، ولم يعد، ولم يُسمع عنه شيء من حينها، كان رجلاً أعزباً، لذا كان نبأ اختفائه أقل ضجيجاً من لو كان أي شخص آخر في مكانه.

وبعد قليل شاع تفسيراً لاختفائه، وهو إنه مدين لأحدهم بالمال، وقد وجد عملاً في مكان آخر خارج البلدة، ومنها سيرسل طالباً متعلقاته.

لكن بالنسبة لي، تساورني مخاوف جسيمة، فلديّ شعوراً بأن الأمر أكبر من ذلك بكثير، أليس محتملاً أن تكون مأساة اختفاء الأغنام الأخيرة دفعته للخروج، واتخاذ بعض الخطوات التي انتهت بهلاكه؟ وربما، مثلاً، يكون قد خرج ليراقب المخلوق المرعب، والمخلوق خرج، وأخذه إلى مخبئه في جوف الجبل؟

لو أن هذا ما حدث فعلا، فيالابئس المصير غير المعقول الذي تلقاه رجلاً إنجليزي متحضر من القرن العشرين! والآن، تزايد شعوري بأن هذا المصير ممكناً، ومرجّحاً، لكن في هذه الحالة، إلى أي مدى أكون أنا مسؤلاً عن موته، أو عن أي حادث أليم آخر قد يقع؟

فالتأكيد مع معرفتي بخطورة من يسكن الجبل، تحتّم عليَّ، وصار من واجبي أن أفعل شيء، أو من الضروري أن أفعل شيء بنفسي.

هذا الصباح، يجب أن يكون الصباح الأخير الذي أكتم فيه ما أعرف، نزلت، وتوجهت إلى قسم الشرطة، وأخبرتهم بالقصة كاملة، دوّن المفتش كل ما قلته في دفتر أنيق جذاب، وجدير بالثناء، وصرفني.

لكن، ولم أكن قد خرجت بعد من ممر الحديقة، حتى سمعت انفجار الضحك العال، بلا ريب، كان يسرد قصة مغامرتي على زملائه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



10 يوليو

أكتب هذه الصفحات، وأنا أسند رأسي في سريري، مرت ستة أسابيع منذ آخر مرة دوّنت فيها شيء في هذا الدفتر، فقد مررت بصدمة عقلية، وجسدية، وكانت نتيجة لهذه التجربة التي ما يقع فيها إنسان إلا نادراً، لكن أنا وصلت لنهاية هذه التجربة فالخطر المقيم في «بلوجون جاب» انتهى، ولن يعود أبداً.

أو على الأقل هذا ما أظنه، غير أني، وما أصابني من كسور، ومرض، ما فعلته إلا للصالح العام، والآن دعني أقُص عليك ما حدث بوضوح، ودقة بقدر استطاعتي.

ليلة الجمعة، الثالث من مايو، كانت ليلة مظلمة غائمة، وهي الليلة الأنسب لتجوّل الوحش، وفي حوالي الساعة الحادية عشر، خرجت، وتركت بيت المزرعة حاملاً مصباحي، وبندقيتي، وقبل أن أغادر تركت ملحوظة على مائدة غرفة نومي، والتي كتبت فيها «لو فُقدت، فابحثوا عني ناحية الكهف»

شققت طريقي إلى مدخل الكهف الروماني، وجثمت بين الصخور بالقرب من المدخل، أطفأت المصباح، وانتظرت بصبر، ولازلت حاملاً بندقيتي في يدي بوضع استعداد.

كأنما عشت في حلم يقظة كئيب، فقد كان بإمكاني رؤية جميع اتجاهات القرية من مكاني الأضواء المتناثرة لبيوت المزرعة، ساعة كنيسة «شابل لى ديل»، وصوت تكات عقاربها التي تصلني إلى هنا خافتة في أذن، كلها علامات زادت من شعور الوحدة لدى إنسان في وضعي هذا، مما تطلب مجهوداً أكبر للتغلب على الرعب الذي أغواني طويلاً بالعودة إلى المزرعة، والتخلي للأبد عن هذا المرام الخطير.

لكن، وحتى في ذاك الوقت، كنت لا أزال أمتلك تلك السّمة المتجذرة في أعماق كل إنسان، تجعل من تراجعه عما عزم عليه شيء في غاية الصعوبة، وقد كان ذلك الشعور بالفخر الشخصي هو خلاصي الوحيد حينئذ، وهذا وحده ما جعلني أثبُت سريعاً كلما كانت غريزتي الطبيعية المجبولة على النجاة، تسحبني بعيداً.

الآن بِت مُمْتناً لامتلاكي القوة، والعزم لأكمل المغامرة، رغم بؤسي، والتأنيب الذي تلقيته فيما بعد.

دقت الثانية عشر في ساعة الكنيسة البعيدة، ثم الواحدة، فالثانية، وتلك كانت أظلم ساعات الليل، تنجرف الغيوم للأسفل، وغابت النجوم عن السماء، والبوم ينعِق من مكانٍ ما بين الصخور، وما عدا ذلك لم يكن من صوت يرن في أذني سوى صوت حفيف الرياح.

فجأة، ومن مكانٍ بعيد بالأسفل في النفق، جاءني صوت خطوات أقدام مكتومة ليّنة جداً، ومع ذلك ثقيلة جداً، سمعت أيضاً صوت صرير الحجارة، وهي تفسح الطريق تحت أقدام الدائس العملاق.

يقترب صوت الخطوات أكثر، الآن باتت الأصوات بقربي، وسمعت صوت تحطم الأغصان حول مدخل النفق، ثم، وبهدوء وسط الظلام أدركت تلويح بعض الأشكال الهائلة في الأفق، كأنه نوعاً من مخلوق بدائي وحشي، يمر بسرعة، وبكل هدوء، وصمت خارجاً من النفق.

شُلّت حركتي من الذهول، والخوف، كنت قد انتظرت هذه اللحظة طويلاً، ولمّا حانت المواجهة بالفعل لم أكن مستعداً من هول الصدمة.

تمددت بلا حراك وكتمت أنفاسي، بينما الكتلة العملاقة المظلمة تتحرك بخفة جواري حتى ابتلعه ظلام الليل.

بعدها شجّعت نفسي واستعددت لعودته، لم يصلنِ من أنحاء الريف النائم حولي أي صوت يُعلمني خبراً عن هذا الرعب المتجول بحرية، لا يمكن بأي حال الحكم على مدى بُعد هذا المخلوق أو ماذا يفعل أو حتى متى تُحتمل عودته.

لكن يجب ألا تخذلني أعصابي مرة أخرى، لا ينبغي تفويت ثانية أخرى دون تحدّيه، وعلى هذا أقسمت، وأنا أحمل بندقيتي، وأعبر فوق الصخور.

ودون سابق إنذار، حدثت المواجهة، اقترب المخلوق، ومر فوق العشب الآن، وفجأة، ومثل الظلام، والظلال المنجرفة، ظهرت الكتلة عملاقة الحجم أمامي مرة أخرى، وسَد مدخل الكهف.

وللمرة الثانية أُصبت بشلل الإرادة الذي أَعْجَزَ سبابة إصبعي عن الضغط على زناد البندقية، لكن، وبعد مجهود بائس ضغطت عليه، وحتى مع خشخشة الأغصان، والوحش القاتم المُتماهي مع ظلال الفجوة، أطلقت النار على الهيكل المتقهقر للداخل.

وعلى لهيب طلقة البندقية لمحت كتلة شعثاء كبيرة، شيء بشعرٍ خشن، ومنتصب، رمادي اللون، وباهت، وفي بعض أجزائه السفلية لمحة من اللون الأبيض، وكل هذا الجسد الضخم يتكئ على أرجل صغيرة، وسميكة، ومقوسة، التقطت هذه اللمحة فقط، ثم سمعت صوت اصطكاك الأحجار، والمخلوق يبعثرها بخُطاه.

على الفور، وبعدما تلاشت صدمتي بعد إحساسي بهذا النصر، وذهبت مشاعر الخوف أدراج الريح، كشفت عن مصباحي وبندقيتي في يدي وقفزت فوق الصخور، وركضت وراء الوحش داخل النفق الروماني العتيق.

أرسل مصباحي الرائع طوفاناً من الضوء الباهر أمامي؛ بالتأكيد الرؤية، والمشهد الآن مختلفة تماماً عن ذلك الوميض الأصفر الذي جعلني أتعثر في نفس الممر قبل اثني عشر يوماً فقط.

وبينما أركض رأيت الوحش الضاري الضخم يسير متمايلاً على طول الممر أمامي، وقد سد جسده العملاق كامل المساحة من الجدار للجدار، شعره الشبيه بالألياف الخشنة باهتة اللون متدلية على طول جسده للأسفل، وتتمايل في كتل كثيفة ثقيلة أثناء تحركه.

كان أشبه بخروفٍ ضخم لم يُقص صوفه قط، لكن حجمه كان أضعاف حجم أكبر فيل، ويبلغ عرض اتساع جسده، تقريباً، نفس حجم ارتفاعه، ملأني منظره دهشة، والآن أفكر هل كان بالفعل يجب عليّ اتباع هذا المُرعب الرهيب داخل أعماق الأرض! لكن عندما يندفع الدم في عرق الإنسان، وعندما يكون المرء مضطراً، فحينئذ يبدو كما لو أنه سيطير، فقط تستيقظ روح الصيد البدائية، ويخبو التعقل، والنطق.

بندقيتي في يدي، وأركض بأقصى سرعة على درب الوحش، كنت قد رأيت من قبل سرعة هذا المخلوق، والآن يجب عليّ اكتشاف شيء آخر فيه، فبجانب سرعته فقد كان هذا المخلوق ماكراً جداً.

بينما كنت أركض وراء هذا الكائن تخيّلت إني أصبته بالذعر، ولهذا تابعت مطاردته، كنت قد ذكرت أن هذا الممر بالأسفل عبارة عن مساراً مفتوحاً على كهف مركزي كبير، فركضت في هذا المسار بسرعة بعدما خِفت أن أفقد أثر الوحش.

لكنه، وفجأة، غيّر مساره، وأصبحنا متقابلين وجهاً لوجه.

اتضحت صورة الوحش على الضوء الأبيض لمصباحي الساطع، صورته التي ستظل محفورة في ذهني ما حييت. حالما رآني انتصب على قائمتيه الخلفيتين تماماً كما يفعل الدب، وقف أمامي بحجمه الهائل مهدداً، كمخلوق لم يجرؤ على غزو أسوأ كوابيسي، ولم يُرد في أكثر خيالاتي تطرفاً.

قلت أنه انتصب على قائمتيه كالدب، لأنه بالفعل كان يُشبه الدب، فلو أمكن تصوّر أن هذا المخلوق دُب، لكن حجمه مضاعفاً أكثر بعشرة مرات من حجم أكبر دُب شُوهد على الأرض.

طريقته، سلوكه، وتصرفه ، وقدميه الأماميتين المقوستين مع مخالبه البيضاء العاجية، جلده السميك المتين الخشن، احمرار تجويف فمه، أهدابه، أنيابه المتوحشة، فقط هو يختلف عن الدب أو أي مخلوق آخر يمشي على الأرض في نقطة واحدة، وكنت قد لاحظت هذا الفارق الوحيد عند مروري به حتى

اللحظة الأشد خطورة، والأكثر رهبة، ورعباً، وهي عيناه اللامعة المتلألئة من وهج المصباح، عيناه كانتا الأضخم، كأنهما مصباحين دائريين، بارزة، وبيضاء.

للحظة تأرجحت كفوفه الضخمة فوق رأسي ثم سقط أمامي، وحينها سقط مصباحي على الأرض، وتهشم، ولا أذكر أكثر من ذلك.

عندما استعدت وعيي كنت قد عُدت إلى بيت مزرعة آلرتون، وقد مر يومين على مغامرتي الرهيبة داخل -كهف «بلوجون جاب»، يبدو إنني استلقيت هناك في الكهف طوال الليل فاقد الوعي؛ إثر إصابتي بارتجاجٍ في المخ، وذراعي الأيسر، وضلعين في صدري مكسورين.

عثُرت عليّ في صباح اليوم التالي فرقة إنقاذ، ويصاحبهم عشرات من المزارعين الذين جاؤوا للمشاركة في البحث عني، تعقبوني ووجدوني، وبعدها حملوني حتى غرفة نومي، وقتها كنت أعاني من هذيان شديد.

على ما يبدو أن أحداً لم يعثر على أي علامة تدل على وجود المخلوق، ولا حتى بقعة دم، والتي نتجت عن إصابتي له بطلق ناري، وهو يمر أمامي، وباستثناء حالتي المزرية، وعلامات الوحل، لم يكن من شيء آخر يدل أو يثبت حقيقة ما قلت.

مرت ستة أسابيع حتى استطعت الجلوس خارج البيت مرة أخرى تحت نور الشمس، وفى الجهة المقابلة لمجلسي تمتد التلال شديدة الإنحدار، رمادية اللون، وصخورها الخفيفة، وعلى أحد جوانبه يوجد شق مظلم يشير إلى نفق كهف بلوجون جاب.

لكن هذا الكهف لم يعُد الآن مصدراً للرعب، ولم يعد يخرج من هذا النفق أي كائنات غريبة إلى عالم البشر، أما أنا فعندما أسرد قصتي، فيفعل المتعلمون ممن يسمعون كما فعل معي دكتور جونسون، ربما يبتسمون أو شيء هكذا، أما القرويين البسطاء من أهل الريف لم يشكوا أبداً في حقيقة ما قلت.

في اليوم التالي لتعافيّ، واسترداد وعيي بالكامل، اجتمع هؤلاء القرويين بالمئات حول -كهف «بلوجون جاب»، كما قال مراسل صحيفة كاستلون، والذي قال في تقريره التالي:

«لم يكن مجدياً لمراسلينا أو أياً من السادة المغامرون الذين أتوا من، ماتلوك، وبوكستون، والمناطق الأخرى، والذين نزلوا لاستكشاف الكهف حتى آخره، أو حتى إلى آخر ما وصلت إليه رواية الدكتور «جيمس هاردكسيل»، أما أهل الريف وضعوا المسألة على مسؤوليتهم، ومنذ الصباح الباكر بدؤوا العمل بجد، احتشدوا أمام مدخل النفق، ولمّا كانت المنحدرات الشديدة الحادة تبدأ من عند فتحة النفق، فقد تدحرجت أسفلها صخور عملاقة، وتكاتف الكثير من

الأيدي العاملة على دفعها للأسفل، حتى استطاعوا سد مدخل النفق بها تماماً.

وهكذا انتهى الحدث الجلل، الذى تسبب في كل هذه الإثارة، والتي راجت في كل أنحاء الريف، أما الرأي العام كان قد انقسم إلى وجهتين للنظر رئيسيتين.

فهناك فريق يرى أن صحة الدكتور هارد كاسيل ضعيفة جداً، لدرجة أن حالته الصحية هذه ربما هي ما تسبب له بالضرر الدماغي خاصة، وهو مصاباً بداء السُل، ونتج عن هذا المرض تلك الهلوسات الغريبة، وهناك أيضاً بعض السّادة من أتباع هذا الرأي من يقول أن الدكتور هارد كاسيل، دخل ليتجول داخل النفق، وسقط بين كل هذه الصخور، وهذا هو التفسير الصحيح لإصابته، ولا يوجد أي مخلوق أو كائن غريب.

ومن ناحية أخرى، كانت أسطورة وجود المخلوق الغريب في الكهف رائجة منذ عدة أشهر سابقة، وقد اعتقد الفلاحون في المنطقة أن ما رواه الدكتور هارد كاسيل، وإصابته هو نفسه، الدليل الدامغ، والنهائي الذي يؤكد صحة هذه الأسطورة.

وعلى هذا النحو صار الموضوع الآن محتدماً بين فريقين، وسيظل هذا الانقسام مستمراً لوقت طويل، لكن، وعلى أي حال بات الحل الذي اتخذه الناس هو الحل الوحيد الممكن؛ ورغم أن المسألة تجاوزت مهارة البشر في إعطاء تفسير علمي محدد لها، كان هناك استنتاج أزعُم أنه الأقرب لتفسير ما حدث.

لكن قبل أن أذكر هذا التفسير، أود الإشارة إلى أنه كان من الحكمة أن يرسلوا إليّ رسولاً قبل أن ينشروا كلماتهم، فأنا الذي حظيت بفرصة رؤية الأمر، والتفكير فيه بما لم يتح لغيري، وربما كنت أفدتهم في إزالة بعض الصعوبات الواضحة في قصتي، وجعلتها أقرب للتفسير العلمي المقبول.

والآن، دعني أكتب تفسيري عن هذا المخلوق، وحكايته، وهو التفسير الوحيد الذي أعتقد أنه يفسر سلسلة من الحقائق. أعرف أن نظريتي ربما لن تكون الحاسمة أو لن يرجحها الكثيرين، لكن على الأقل، لن يجرؤ أحداً على قول إنها مستحيلة.

وجهة نظري، والتي شكّلتها كما هو موضحاً في يومياتي، قبل مغامرتي الشخصية، أنّ هذا الجزء من إنجلترا يحتوي على مساحات شاسعة، وممتدة من بحيرات المياه الجوفية، أو حتى بحراً، ويغذيه عدداً كبيراً من الأنهار التي تمر عبر صخور الحجر الجيري.

وبما أن هناك كل هذه المجموعة من المجاري المائية، فاحتمالية تبخرها في صورة ضباب، ونزولها كأمطار يدعم إمكانية انتشار هذه المياه على نطاق أوسع، وحيث ستنزل سينمو غطاء نباتي كبير؛ وبالتالي فإن هذه الحياة النباتية ستزيد من فرصة نمو الحياة الحيوانية، والتي ستزدهر، وتنمو كما الحياة النباتية بالتوازي.

ومن المحتمل إن مثل هذه البذور، والأنواع نمت في المراحل المبكرة، والأولية من تاريخ العالم، عندما كان تواصل هذه الأنواع مع الحياة الخارجية أسهل، وهذا يشير أن هذا المكان تحديداً، طوّر حياة نباتية، وحيوانية خاصة به، ومن ضمنها كان هذا الوحش الذي رأيته، والذي من المحتمل أن يكون نوعاً من دُب الكهوف القديم، وقد تضخم بشكل هائل، وتعدّل بحسب البيئة الجديدة.

وعلى مدار عصور لا حصر لها، فإن هذه المخلوقات الداخلية، والخارجية ظلت منفصلة تماماً، وتنمو باستمرار بعيداً عن بعضها بعض.

ثم حدثت بعض التصدعات في أعماق الجبل مما مكّن أحد المخلوقات هذه بالتجول، وعن طريق هذا النفق الروماني العتيق؛ وصل حتى خرج إلى الهواء الطلق، إلى العالم الخارجي.

ومثله مثل كل الحيوات التي تنمو تحت الأرض، فَقَدَ هذا المخلوق قوة الإبصار، ولكن؛ ومن دون شك عوضته الطبيعة في حواس، واتجاهات أخرى، وبالتأكيد لدى هذه المخلوقات وسائل لاكتشاف هذه التعويضات، واهتدت للطريق، وبدأت تصطاد الخراف التي ترعى أسفل منحدر التل.

أما بالنسبة لاختياره الليالي المظلمة، فهي جزء آخر يؤكد نظريتي بأن الضوء يؤذي ويؤلم مقل تلك العيون البيضاء الكبيرة. فهذه العيون لم تألف إلا ظلام هذا المكان الحالك السواد، وهو فقط المكان الذي تسامح معها.

فى الواقع، كان سطوع ضوء مصباحي هو الشيء الوحيد الذي أنقذ حياتي في تلك اللحظة الرهيبة عندما تواجهنا أنا، والمخلوق؛ ولهذا أنا من عرفت حل اللغز.

أترك هذه الحقائق من بعدي، ولو إنك استطعت شرحها، فافعل، ولو أنك اخترت التشكيك فيما روَيْتُه فأنت حُر؛ فسواء صدقت أو لم تصدق فهذا لن يغير من الحقيقة شيء. ولا يؤثر على المهمة التي انتهت، تقريباً.

وهنا كان قد انتهت القصة العجيبة للدكتور هاردكسيل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

3

سراديب الموتى الجديدة

قال كيندي، لصديقه بروجر:

- اسمع، أتمنى لو أنك تثق بي.

كلاهما من أشهر علماء الآثار الرومانية، وكانا يجلسان ذات ليلة معاً يدردشان في غرفة كيندي الفارهة، والمطلة على مدينة «كورسو».

الليلة باردة جداً، فقرّب كلاهما المقاعد، وتمركزا قرب المدفأة الإيطالية، والتي لم تكن في الحقيقة مُجدية في هذا البرد، وكانت تنشر الإختناق أكثر من الدفئ.

في الخارج، وتحت نجوم الشتاء البراقة تمتد روما الحديثة، وعلى طول المدينة توزعت سلاسل «اللمبات» الكهربائية، وتنشط المقاهي بديعة الإضاءة، والعربات المُسرعة، وزحام البشر الذاهبين، والغَاديين على الأرصفة.

أما في داخل غرفة كيندي الفخمة، والتي خُصصت لهذا الشاب الإنجليزي الثري، وعالم الآثار، لا يوجد ما يُرى سوى روما القديمة، أفاريز متصدعة عتيقة معلقة على الحوائط، تماثيل نصفية بلون رمادي لأعضاء مجلس الشيوخ، وبعض الجنود لهم رؤوس المحاربين، ووجهوهم القاسية الخشنة تبرز من أحد الأركان.

فوق المائدة المتوسطة للغرفة، بقايا نقوش قديمة، وشظايا، وحطام، وحُلي، كلها تنتظر إعادة ترميمها على يد الأثري الأشهر كيندي، وقد جاءت هذه الآثار من «حمامات كاراكالا»، وهي الآثار التي أثارت الإعجاب، والاهتمام عندما عُرضت في برلين.

من السقف تَدلت ثريا، وبقايا التحف تتناثر على السجادة التركية الحمراء باهظة الثمن، ولم يكن من ضمن هذه البقايا، ولا حتى قطعة واحدة أقل قيمة، وندرة من الأخرى.

بالنسبة لكيندي، والذي لم يكن قد بلغ الثلاثين عاماً بعد، كان قد حقق سمعة أوروبية في هذا الفرع من الأبحاث، ولذا كان دائماً ما يحمل معه حقيبة طويلة، في الحقيقة هذه الحقيبة إما كانت تمّثل عائقاً أمام طاقات الطالب، وإما تكون إثبات على أن عقله متمكناً من تحقيق أهدافه، وتمنحه ميزة هائلة في سباقه نحو الشهرة.

رغم ما حققه كيندي من شهرة، وعلم في دراسته، إلا أنه غالباً ما كان يُغوى بالنزوات، والمتع؛ فقد كان يمتلك عقلاً ثاقباً، حاد الذكاء، دؤوب، ومثابر، ومحتملاً للجهد الطويل المكثف، لكن هذا المجهود دائماً يعقبه الإنجذاب للمتع الحسية.

وجهه الوسيم، وجبهته العالية البيضاء، أنفه الحاد، فمه الواسع الشهواني إلى حدٍ ما، كلها كانت مؤشرات على التوازن بين القوة، والضعف في طباعِه.

كان شخصية مختلفة تماماً عن رفيقه «يوليوس بروجر»، والذي كان تجانُس أب ألماني، وأم إيطالية، مزيجاً غريباً من صفات القوة، والصلابة من الشمال الألماني، مع نعمة الرقة، والجمال من الجنوب الإيطالي، عيونه الزرقاء الجَرمانية تضيء وجهه المحمر بالشمس القوية فوقهم، وشعراً أشقراً مجعد يحيط جبهته.

فكه القوي المربع حليق الذقن، والتي من أجلها كثيراً ما لاحظ رفيقه شَبَهُه بالتماثيل الرومانية النصفية التي تزين غرفته، ومرات عِدة صارحه بذلك، وتحت كل هذه القوة الألمانية تستكين الطباع الرقيقة الإيطالية، فالابتسامة الصادقة، والعيون الصريحة هي ما تجعل المرء يدرك، أنها علامة ورثها فقط من أسلافه، من دون أن تؤثر إطلاقاً على شخصيته.

كان متماثلاً، ورفيقه الإنجليزي في العمر، والشهرة، لكن حياته، وعمله كانتا أكثر صعوبة من رفيقه، فقبل اثنتي عشر عاماً جاء إلى روما كطالب فقير، وحينئذ كان يعيش على المِنح الصغيرة التي تقدمها له جامعة «بون» مقابل أبحاثه.

بألم، وبطء، وعزم، وإصرار استثنائي، وعقلية متفردة صعد سُلم الشهرة درجة درجة، حتى أصبح الآن عضواً في أكاديمية برلين، وتتوفر فيه كل الشروط التي تؤهله للترقي قريباً إلى منصب رئيس أعظم جامعات ألمانيا.

لكن السبب الوحيد الذى أوصله إلى نفس المستوى الرفيع لرفيقه الثري الإنجليزى المتألق، هو نفسه السبب الذي منعه عن التواصل مع أي شيء آخر خارج عملهم، المطمور تحتهم بلا حدود.

هو لم يتوقف مطلقاً عن دراسته ليصنع لنفسه حياة اجتماعية هنية، فلا يحدث أبداً، وأن يمتلئ وجهه بالحياة، والحيوية إلا عندما يتحدث عن موضوعاً يخص دراسته، لكن في بقية الأوقات يظل صامتاً محرجاً، مدركاً تماماً لمحدودية خبرته في الموضوعات الأكبر، حتى أنه يضيق صدره عندما يتحدث الناس في تلك الموضوعات الصغيرة التي تُمثّل لهم ملجأ تقليدي عندما لا يجدون أفكاراً أخرى يتكلمون عنها.

بعد مِضي سنين عِدة على تعارفهما تحولت رفقتهما، وببطء شديد إلى صداقة خاصة بين هذين الرجلين المختلفين كلياً.

فالأساس، والأصل لهذه الصداقة يكمن في حقيقة أنهما، وخلال دراستهما، وأبحاثهما، كانا يُعتبران أصغر من يمتلك كل هذه المعرفة، والحماسة، فحصل كل منهما على تقدير الآخر بما يستحق، يجمعهما اهتمامات مشتركة، ومصالح، ومهام واحدة، وانجذب كلاً منهما بمعارف الآخر، وعلمه بالتدريج، ومع الوقت أضيف شيء آخر إلى كل ما سبق، وهي أن كيندي كان يستمتع بصراحة، وبساطة منافسه، بينما بروجر كان مفتوناً بتألق كيندي، وحيويته، والتي كانت السبب الاساسي لجعله محبوب المجتمع الروماني.

قلت «كان» لأنه في الوقت الحالي صار الشاب الإنجليزي الثري موضع شبهة، فعلاقة حب لم تتكشف تفاصيلها تماماً، هي ما أثبتت قساوة قلبه، وعدم مبالاته، وهذا الطبع هو ما صدم العديد من أصدقائه فيه.

لكن في أوساط الطلاب العزاب، والفنانين، وهي الأوساط التي بات يفضل التحرك فيها، لم يكن هؤلاء يتمسكون بمبادئ شرف صارمة فيما يتعلق بهذه الأمور، وعلى الرغم من هز الأكتاف، والرؤس استغراباً لتغير حال الثنائي الذين تفرقوا، إلا أن الشعور العام كان الحسد أو الفضول ربما، لكن ليس شعوراً بالاستنكار.

- اسمع بروجر، أتمنى أن تثق بي.

قال كيندي، وهو ينظر بصرامة في وجه رفيقه الرقيق، وبينما يتحدث، كان يشير بيده إلى السجادة المفروشة على الأرض، وعلى السجادة، وُضعت سلة من الخوص الخفيف، من تلك التي تُصنع في كامبانيا، ويستعملها الناس لِحَمل الفواكه، لكن السلة مُكدسة لآخرها بمجموعة من البقايا لآثار مختلفة، بلاط منقوش، فُسيفساء متصدعة، برديات ممزقة، حُلى معدنية صدئة، وشكلها يدل على إنها استخرجت للتو من باطن الأرض، وأي متخصص سيعرف من النظرة الأولى إنها آثار فريدة من نوعها.

قَدِمت كومة البقايا التي انتهى بها الحال مُكدسة في سلة من الخوص، واحدة من أهم الروابط المفقودة التي تدل على التطور الإجتماعي، والتي تهم في دراستها كل طلاب الآثار.

الألماني هو من أحضر هذه البقايا إلى هنا، وعيون الإنجليزي تنظر إليهم بنهم جائعاً للمعرفة.

- لا أريد التدخل في اكتشافك، فقط أحب أن أسمع قصة هذا الكنز، والعثور عليه

-

أشعل بروجر سيجارة، بينما يُكمل كيندي حديثه الفضولي عن الإكتشاف.

- من الواضح أن لهذا الإكتشاف أهمية كبرى، فكما يظهر من النقوش، إنها ستحدث ضجة في كل أنحاء أوروبا.

- كل قطعة هنا مجرد عينة لمليون قطعة أخرى، كمّ هائل، لدرجة أن العشرات من العلماء سيقضون حياتهم عاكفين على دراستها، كما أن لهذه القطع أهمية، وشهرة تماماً مثل قلعة سانت أنجلو.

قال بروجر الألماني.

جلس كيندي يفكر، وقد قطب جبينه الجميل هذا، وأصابعه تداعب شاربه الطويل المشذب، وأخيراً قال:

- لقد كشفت عن سرك بروجر، فالمواصفات التي ذكرتها لا تنطبق إلا على مكان واحد! أنت اكتشفت سراديب الموتى الجديدة!

- لم أشك في أنك ستصل لهذا الاستنتاج فور تفحصك لهذه البقايا.

رد بروجر.

- نعم هذه البقايا كانت أدلة على استنتاجي، لكن إشارتك الصغيرة أكدت لي أكثر، فلا يوجد مكان باستثناء سراديب الموتى يمكن أن يحتوي على مساحة بهذا الحجم، ولا يوجد مكان يمكن أن يكون مخزناً للآثار بالطريقة التي وصفتها إلا السراديب.

- استنتاجك صائب تماماً، فلا غموض في المسألة، فأنا بالفعل اكتشفت سراديب موتى جديدة.

- أين؟

- أوه، يا عزيزي كيندي، بالتأكيد لن أقول فهذا سري الخاص، لكن سأكتفي بقول أنه يقع في مكانٍ ما حيث لا توجد فرصة، حتى واحد في المليون، ليعثر عليه أي إنسان آخر يبحث عنه؛ فتاريخ إنشاء هذه السراديب مختلفاً كلياً عن أي سراديب موتى أخرى معروفة، فالسراديب من اكتشافي، كانت مخصصة لدفن المسيحيين الأوائل، ولهذا فإن الآثار، والبقايا مختلفة تماماً عن أي شيء اُكتشف من قبل، ولو أنني لا أعرفك جيداً، وأعرف مدى علمك، ونشاطك، وشغفك بعملك، يا صديقي، ما ترددت لحظة، بعد القَسم على السرية بالتأكيد، أن أفضي لك بكل شيء؛ لكن، وكما أعتقد بالتأكيد، أنا من يجب أن أقدم تقرير بحثي أولاً عن الإكتشاف، قبل أن أعرّض نفسي لهذه المنافسة الشرسة.

يحب كيندي دراسته، حباً جماً، حُباً جعله يُخلص لهذا العمل وسط كل المتع التي تلهي شاب ثري، ومستهتر، كان طموحاً، لكن طموحه ثانوي، مجرد استمتاع واهتمام بكل شيء يخص الحياة القديمة، وتاريخ المدينة؛ لذا تاق لرؤية العالم السفلي الجديد الذي اكتشفه رفيقه.

- اسمع بروجر، أؤكد لك أن باستطاعتك الوثوق بي فيما يخص هذا الإكتشاف، فلن يغريني شيء لأكتب كلمة واحدة عن أياً مما سأراه حتى تأذن لي أنت، فأنا متفهم مشاعرك تماماً، وأظن أنها طبيعية جداً، لكن حقاً لا شيء يدعوك للخوف مني، ومن ناحية أخرى، إن لم تخبرنِ أنت فسأقوم أنا بعمل بحث ممنهج، وبالتأكيد حينها سأصل لهذا الإكتشاف، في هذه الحالة، سأفعل ما يحلو لي بهذا الإكتشاف، فحينها لن أكون ملزماً تجاهك بأي وعد.

قال كيندي بجدية.

- يا صديقي العزيز كيندي، لاحظت أني عندما أطلب منك أي معلومة في أي موضوع فدائماً تخذلني، وتبخل عليّ بها.

- متى سألتني في أي شيء وأنا لم أخبرك؟ مثلاً، هل تذكر عندما أعطيتك المادة التي استخدمتها في بحثك عن معبد فيستا.

- أوه، نعم أذكر، لكنها لم تكن بالمادة المهمة جداً، لكن إذا سألتك عن موضوع أكثر أهمية هل ستجيبني؟ سراديب الموتى الجديدة هذه مهمة جداً بالنسبة لي، وأنا بالتأكيد أريد بعض مؤشرات تجعلني أثق بك.

- لا أفهم إلى ما ترمي، لكن لو كنت تقصد بكلامك إنك ستجيب على أسئلتي بخصوص سراديب الموتى الجديدة، فأنا بالمقابل سأجيبك عن أي موضوع تسأل فيه.

قال كيندي الإنجليزي الثري.

- اتفقنا.

قال بروجر، وهو يريح ظهره على الكرسي، وينفث دخان سيجاره على هيئة شجرة زرقاء في الهواء.

- فلتحكي لي إذاً عن علاقتك بالآنسة ماري ساندرسون.

قفز كيندي من مكانه، ورمى رفيقه بنظرة غضب، وعدوانية، وقال صارخاً:

- أي قصد خبيث تعني؟ ما هذا السؤال؟ ولو كان سؤالك على سبيل المزاح فهي أسخف مزحة قلتها.

- لا، لم يكن السؤال مزاحاً.

قالها بروجر ببساطة

- أنا مهتم جداً بمعرفة كل تفاصيل هذه العلاقة، فأنا لا أفهم العالم، وعلاقات الرجال، والنساء، والحياة الإجتماعية، ومثل تلك الأمور الساحرة المثيرة، والتي أجهلها تماماً، أنا أعرفك، وأعرفها، حتى إني تحدثت معها لمرة أو مرتين، والآن، سأحب جداً أن أسمع بالضبط ما حدث بينكما، ومنك أنت.

- لن أحكي لك شيء.

رد كيندي.

- كما تريد، كانت تلك مجرد مناورة لأرى ما إن كنت ستفشي سرك لي، بالسهولة التي تتوقع مني أن أفضي لك بسري عن سراديب الموتى الجديدة، أنت لن تتكلم، وأنا توقعت منك ذلك؛ لكن لماذا تتوقع مني العكس مثلاً؟ ها هي ساعة كنيسة سانت يوحنا، تعلن الساعة العاشرة، وهو وقت عودتي للبيت.

- لا بروجر، انتظر قليلاً، فالعلاقة التي تتمنى معرفة تفاصيلها كانت مجرد علاقة حب قديمة، وانتهت منذ شهور عديدة، بالإضافة إلى أنك تعرف كيف ننظر إلى الرجل الذى يخون السرية في هذه الأمور، وكيف نراه أكبر جبان، وخسيس.

قال كيندي.

- بالتأكيد.

قالها الألماني بروجر، وهو يجمع الآثار في سلته.

- أنت مُحق، لكن هذا ينطبق على رجلاً يحكي عن فتاة لم تكن قصتهما معروفة للسامع، لكن في حالتكم، وكما تعرف، كانت سيرة علاقتكما شائعة في كل روما، وعلى هذا فأنت لن تكون حقاً تؤذي الآنسة ماري ساندرسون عندما تحكي قصتكما؛ لكني لازلت أحترم تأنيب ضميرك، وتُصبح على خير.

- انتظر قليلاً بروجر.

قال كيندي، ووضع يده على ذراع بروجر.

- أنا متشوق، ومتلهف جداً لمعرفة كل ما يخص سراديب الموتى الجديدة، ولا يمكن أن أتجاهل هذا الكشف بتلك السهولة، لكن هل تمانع، وتسألني عن أي موضوع آخر، لكن هذه المرة ليس سؤالاً بهذه الغرابة؟

- لا، لا، أنت رفضت أولاً، وانتهى الأمر.

قال بروجر، وحمل سلته على ذراعه.

- لا ريب في حقك الكامل بالامتناع عن الإجابة، وفي المقابل لديّ كل الحق أيضاً في الامتناع عن إخبارك عن اكتشافي، ومرة أخرى، تُصبح على خير عزيزي كيندي.

راقب الإنجليزي الثري رفيقه بروجر، وهو يعبر الغرفة، وضع يده على مقبض الباب قبل أن يقفز فى الهواء ناحية الرجل الذي لا يبذل أي جهد في مساعدته، وقال له:

- تمهل يا صديقى، أظن إنك تتصرف بأسخف الطرق، لكن أعتقد بما أن هذه هي طباعك، فلا مجال إلا لانصياعي لرغباتك، أكره أن أحكي أي شيء عن فتاة، لكن، وكما قلت أنت، أن القصة شاعت في كل روما، ولا أظن إني سأخبرك بشيء لا تعرفه بالفعل، ماذا تريد أن تعرف بالضبط؟

عاد الألماني إلى المدفأة، وضع سلته على الأرض، وجلس على كرسيه مرة أخرى، وقال:

- هل لي بسيجارة أخرى؟ شكراً جزيلاً، عادة أنا لا أدخن أبداً عندما أعمل، لكن أستمتع بالدردشة أكثر عندما أكون تحت تأثير التبغ، والآن فيما يتعلق بهذه الشابة، والتي خضت معها مغامرتك الصغيرة، ماذا حدث لها في هذا العالم؟

- عادت للوطن، تقيم مع عائلتها.

- أوه حقاً، في إنجلترا؟

- نعم.

- أي مكان في إنجلترا، في لندن؟

- لا، في تويكنهام.

- أُعذر فضولي يا عزيزي كيندي، فلابد، وأن تعزو أسئلتي إلى جهلي بهذا العالم، من دون شك كان أمراً سهلاً جداً أن تُقنع شابة بالخروج معك لثلاثة أسابيع أو أياً كانت المدة، وبعدها تعيدها إلى عائلتها في ماذا كان اسمها؟ آه، توينكهام! نعم توينكهام، وهذا ما لا أفهمه إطلاقاً، ولا أستطيع حتى تخيل القصة فهذا بعيداً تماماً عن خبرتي لكني، مثلاً أعتقد إنك لو أحببت الفتاة، فكيف لا يصمد حبك إلا ثلاثة أسابيع بالكاد! ولهذا لا أظن أنك أحببتها أصلاً، لكن إن لم تكن تحبها لماذا افتعلت هذه الفضيحة الكبيرة التي دمرتك، وخرّبت حياتها؟

نظر كيندي بحزن في عيون المدفأة الحمراء، وقال:

- بالتأكيد تلك هي النظرة المنطقية للأمر، فالحب كلمة كبيرة، وتولد الكثير من الأحاسيس المختلفة، والجميلة، نعم أعجبت بها، وحسناً، وأنت قلت أنك رأيتها، وتعرف كم كانت تبدو جميلة فاتنة، لكن؛ ولا أزال معترفاً، كما في الماضي، إني لم أحبها حقاً.

- إذاً كيندي، لماذا فعلت هذا؟

- المغامرة كانت تستحق.

- ماذا! ألهذه الدرجة أنت مولعاً بالمغامرات!

- وكيف يكون التمتّع بالحياة من دون المغامرة؟ فمن أجل المغامرة بدأت أوجه كامل اهتمامي إليها، طوال حياتي، وأنا الرابح الأكبر في لعبة المغامرة، لكن لا شيء أمتع من مطاردة امرأة جميلة، رغم أن هذه المغامرة كانت الأصعب، لأن ماري كانت رفيقة لـ «الليدي إيملي رود» صاحبة المقام الرفيع، وكان شبه مستحيل رؤيتها على انفراد، أضف إلى ذلك عقبة أعتى، وأخطر، وقد عرفتها منها هي شخصياً في وقت مبكر من علاقتنا، وهي أنها كانت مخطوبة.

- ياالله، مخطوبة لمن؟

- لم تذكر أسمه أبداً.

- ولا أظن أن أحداً يعرف، لكن هل هذا ما جعل مغامرتك أكثر إثارة.

- بالتأكيد، قد أضفى هذا الوضع للمغامرة نكهة خاصة، ألا تظن أنت ذلك؟

- قلت لك إني جاهلاً تماماً في مثل تلك الأمور، فلا تسأل.

- يا رفيقي العزيز، سأُقرب لك الصورة، هل تذكر تلك التفاحة التي كنت تسرقها من أشجار الجيران، وكم كانت دائماً أحلى من تلك التي تسقط بين يديك من تلقاء نفسها! وبعدها وجدت أن ماري هي أيضاً مهتمة بي.

- ماذا! هكذا بهذه السرعة؟

- لا، أبداً، فقد استغرق الأمر حوالي ثلاثة أشهر، لكن في النهاية فزت بها، كانت متفهمة أن طلاقي، وزوجتي مؤخراً جعلا من المستحيل عليّ أن أعيش معها علاقة أكثر استقراراً، لكنها لم تهتم لذلك، وقضينا أمتع الأوقات طوال فترة علاقتنا.

- لكن ماذا عن الرجل الآخر، خطيبها؟

هز كيندي كتفيه، وقال:

- أظن أن حالتنا تلك انطبق عليها قاعدة البقاء للأصلح، فلو كان الرجل الأفضل لها ما كانت تركته، والآن دعنا من هذا الموضوع، فقد اكتفيت منه.

- شيء واحداً أخير، كيف تخلّصت منها، وهجرتها بعد ثلاثة أسابيع فقط؟

- حسناً، كلانا هدأت مشاعره قليلاً، وهي رفضت رفضاً قاطعاً، وتحت أي ظرف أن تعود، وتواجه الناس الذين عرفتهم في روما، في نفس الوقت الذي كانت فيه روما بالأهمية القصوى بالنسبة لي، وبالفعل كنت متلهفاً للعودة لعملي، وحينها وجدت الذريعة الواضحة للانفصال، وفي هذه الليلة باغتنا والدها العجوز عند الفندق في لندن، وما حدث تالياً كان مزعجاً للغاية، ورغم أني، فقط في البداية، اشتقت إليها بشكل رهيب، إلا إني سعدت جداً بهذا الانفصال، والآن، أنا أثق بأنك لن تكرر كلمة مما سمعتها مني الآن.

- عزيزي كيندي، لا أستطيع، حتى في أحلامي، تكرار ما حكيته لي، لكن كل ما قلته حمّسني جداً، خاصة، وأنني من خلاله أستطيع تكوين فكرة عن طريقتك للنظر للأشياء، والتي، وسأعترف، مختلفة كلياً عن طريقتي؛ فأنا ما رأيت إلا قليلاً جداً في هذه الحياة، والآن، أنت تتوق لمعرفة تفاصيل اكتشافي لسراديب الموتى الجديدة، لكن في هذه الحالة سيكون الوصف غير مُجدي، لأنك لن تستطيع الوصول بحسب الوصف مهما بحثت، وعلى هذا، لا مفر من اصطحابك بنفسي إلى هناك.

- سيكون هذا رائعاً.

- متى تود الذهاب؟

- بأسرع ما يمكن، أنا متلهفاً لرؤيتها.

- اتفقنا، الليلة رائعة رغم البرد القارص، لذا من المفترض أن نبدأ طريقنا إليها خلال ساعة، يجب أن نحرص على اقتصار الأمر علينا، فلو أن أحداً رآنا نخرج سوياً، فسوف يشكون أن شيئاً ما يحدث، ونتكتّم عليه.

- لن نستطيع الحذر لهذه الدرجة، لكن هل المكان بعيد؟

- عدة أميال.

- أليس عدة أميال كثيرة لنقطعها سيراً؟

- لا، أبداً، يمكننا السير لهناك بسهولة.

- إذاً فلنسير، فسائق التاكسي سيرتاب بنا عندما يقلنا إلى هذه البقعة النائية في هذا الوقت المتأخر من الليل.

- صحيح جداَ، وأظن أيضاَ أنه من الأفضل لنا أن نلتقي على طريق»بوابة إيبان» عند منتصف الليل، والآن، يجب أن أعود لمسكني لإحضار أعواد ثقاب، وشموع، وبعض الأشياء الأخرى.

- اتفقنا بروجر، ولطف كبيراً منك أن تطلعني، وتشركني في هذا السر، وأعدك أني لن أكتب كلمة واحدة عن أي شيء أراه حتى تنشر أنت بحثك، إلى اللقاء مؤقتاً! وسوف نلتقي عند البوابة في الثانية عشر.

امتلأ الهواء البارد النقي بموسيقى تكات ساعة المدينة، بينما خرج «بروجر» مدثراً بمعطف إيطالي ثقيل، ويحمل في يده فانوس، ويسير متجهاً حتى الملتقى، حيث يقف كيندي ينتظره في الظلال.

قال بروجر الألماني حالما التقى رفيقه:

- أنت تتحمس للعمل بقدر ما تتحمس للحب!

وضحك.

- نعم، فأنا في انتظارك منذ حوالي النصف ساعة.

- آمل ألا تكون تركت وراءك ما يدل على وجهتنا.

- أنا لست غبياً ياالله، إني أرتعد من البرد الذي يخترق عظامي! هيا بروجر لندفئ أجسادنا بالسير مهرولين.

صوت خطواتهم عالٍ، يطقطق فوق أحجار الطريق المثير للرثاء، فهذا كل ما تبقى من أشهر طريق سريع في العالم، وعلى هذا الطريق لم يقابلهم سوى عدد قليل من عربات الريف المتجهة إلى روما.

وصلا إلى منطقة المقابر التي سارا فيها بشكل متعرج مع شواهد القبور الضخمة الملوّحة في الظلام على جانبيهما، حتى وصلوا إلى سراديب موتى «سانت كاليستوس»، وأمامهم شاهدوا القمر الساطع الكبير يلقي بدائرة ضوئه على ضريح «سيسليا ميتيلا».

وقف بروجر فجأة، ويديه بجانبه، وقال لرفيقه:

- ساقيك أطول من سيقاني، وأنت معتاد على المشي.

وضحك.

- وأظن أن المكان الذي نقصده في بقعة ما هنا، نعم، ها هو، حول زاوية، تراتوريا؛ لكن المدخل ضيق جداً، لذا فمن الأفضل أن أدخل أنا أولاً، ثم تتبعني أنت.

-

أشعل مصباحه، وعلى ضوئه دخلا، واتبعا الممر الضيق ثم المسار المتعرج المار بمستنقع كامبانا، فالمجاري المائية الكبيرة لروما القديمة تمتد كوحش كاتربيلر، عبر الأراضي الطبيعية تحت ضوء القمر، وقادهم طريقهم إلى واحدة من تلك الأقواس العملاقة، والممر الدائري المبني من الطوب المتهالك الذي ميّز المنطقة القديمة.

أخيراً توقف بروجر عند الزاوية، حيث يوجد كوخ خشبي منعزل، أخرج مفتاحه من جيبه، فصاح كيندي مندهشاً:

- من المؤكد أن سراديب الموتى التي اكتشفتها ليست بداخل هذا الكوخ!

- إنه المدخل للسراديب، وهذا الكوخ للتمويه، والأمان فقط، حتى لا يعثر شخصاً آخر على اكتشافي.

- وهل يعرف المالك بالأمر؟

- بالتأكيد لا، لكنه كان قد عثر على شيء أو اثنين من قبل، وهذا ما جعلني أتأكد أن بيته بُنيَ على مدخل لمثل هذا الكشف، لذا قمت باستئجار البيت منه، وحفرت، ونقبّت بنفسي، ادخل، واغلق الباب ورائك.

كان البيت عبارة عن مبنى طويل فارغ، وعلى طول جوانبه بُنيت مذاود البقر، وضع بروجر المصباح أرضاً، فألقى بظلاله على كل الاتجاهات ما عدا ركن واحد حجب عنه الضوء بمعطفه، وقال:

- سيثير هذا الضوء شكوك، وتساؤلات إذا ما رآه أحداً في البيت الوحيد في هذه البقعة، والآن، ساعدني على تحريك هذه الألواح.

كانت أرضية الركن رخوة مفكوكة، فقط الألواح مرتصة بجوار بعضها، رفعها العالمان، ووضعَاها بجوار الحائط، أسفل الألواح حفرة مربعة، من أسفلها درجات سُلّم من تلك الأحجار العتيقة، ويقود إلى الأسفل عميقاً في أحشاء الأرض.

- احترس.

صرخ بروجر، عندما أخذت كيندي الحماسة، وأسرع في النزول للأسفل.

- هذا المكان تماما كجُحر الأرنب، لو أنك ضللت طريقك مرة واحدة فيه؛ فإن فرص خروجك منه ستكون واحد بالمائة، انتظر حتى أشعل الضوء.

- إذا كان المكان بهذا التعقيد فكيف تجد أنت طريق خروجك؟

- في البداية، كنت أعرف مخارج قليلة جداً، ولا أذهب لبعيد، لكن بالتدريج تعلّمت كيف أجول في الأنحاء، فهناك نظام معيّن لهذه الجحور، ورغم ذلك،

فإن من السهل للغاية أن يضِل المرء طريقه، خاصة في الظلام، ومستحيل حينها أن يجد المخرج، لكن أنا، وحتى اليوم، دائماً ما أحمِل بكرة خيط أفلتها ورائي عندما أدخل هذه السراديب، أنت بنفسك ترى صعوبة تصميم هذا المكان، فكل من تقاسيم هذه الممرات تتقاطع بعشرات من الممرات أيضاً قبل أن تسير فيها حتى مائة متر.

نزلا حوالي عشرين قدماً من مستوى المدخل، ويقفون الآن في غرفة مربعة محفورة في أحجار «التوفا الجيرية» الناعمة، ألقى مصباحِهما ضوء ساطع برّاق بالأسفل، وضوء باهت خافت في الأعلى، وعلى الجدران البنية المتصدعة.

في كل الاتجاهات فتحات مظلمة لممرات، وجميعها تفتح على هذا المركز المشترك.

- صديقي، أريدك أن تتبعني عن قرب، ولا تتوقف في الطريق لتتفحص شيئاً، لأن المكان حيث سآخذك يحتوي على كل ما يستحق، ويمكنك رؤيته، وأكثر، وسنكسب وقتاً لو قصدنا هدفنا مباشرة.

شق بروجر طريقه إلى أسفل أحد الممرات، وكيندي في أعقابه، وكل بضعة أمتار يتقاطع الممر، ويتفرّع، لكن كان من الواضح جداً أن بروجر يتبع بعض العلامات السرية، والتي، ربما، يكون قد صنعها بنفسه، لأنه لا يتردد، ولا يتوقف.

كل متر على طول الحائط كُدست بما يشبه مراسي سُفن المهاجرين، وارتصت فيها جثامين مسيحين روما القديمة.

سطع الضوء الأصفر على ملامح المومياوات المنكمشة، ولمع فوق الجماجم الكروية، وعلى عظام أذرع بيضاء طويلة متقاطعة فوق صدور خالية من اللحم.

وبينما يجول كيندي بعينيه الحزينة في كل ركن حوله، على النقوش، والأواني الجنائزية، والصور، والملابس، والأوعية، وجد أن كلها موضوعة تماماً كما رتّبتها أيادي الأتقياء منذ عدة قرون مضت.

اتضح له، حتى مع تلك النظرة العابرة، إنها أقدم، وأجمل سراديب موتى، وتحتوي على مخزون من الآثار الرومانية ما لم يسبق له مثيل، ولم تلتقطها من قبل أبداً أعْين الدارسين، والباحثين.

- ماذا سيحدث لو أن الضوء انطفأ؟

سأل كيندي، وهما يهرولان للأمام.

- لديّ شموع، وأعواد ثقاب احتياطية في جيبي، بالمناسبة كيندي، هل معك أي أعواد ثقاب؟

سأل بروجر.

- لا، ومن الأفضل أن تعطيني بعضاً مما لديك.

- أوه، حقاً ربما سأعطيك البعض، لكن مهلاً، ليس هناك فرصة لانفصالنا.

- كم سنبتعد؟ يبدو لي أننا سرنا حوالي ربع ميل على الأقل.

- أظن أكثر قليلاً من ربع ميل، فهذه السراديب لا حدود لها، أو على الأقل أنا لم أعثر على نهايتها، فهذا المكان معقد جداً، ولهذا أعتقد أن من الأفضل أن أستعين ببكرة الخيط هذه.

ربط طرف الخيط في حجر بارز بالحائط، وحمل البكرة في جيب معطفه، يخرجها كل حين ليفك خيطها كلما تقدم، رأى كيندي أن هذا الاحتراز لا لزوم له، لأن الممر صار أكثر تعقيداً، وانعطافاً مع شبكة متكاملة متشابكة من الممرات المتقاطعة، وكلها تنتهي في القاعة الدائرية الضخمة، أعمدتها المربعة من حجر التوفا، ومغطاة ببلاط رخامي في أحد أطرافها.

- يالله.

صاح كيندي بنشوة بينما يؤرجح بروجر مصباحه فوق الرخام.

- إنه مذبح مسيحي، وربما يكون المذبح الأول في الوجود، وها هو صليب التكريس الصغير في أحد أركانه، من دون شك، كانت هذه المساحة الدائرية تستخدم ككنيسة.

- بالضبط، ولو كان لدينا وقتاً أكثر لأَرَيتك كل الجثامين التي دفنت في كل هذه الكوات على الجدران، فهم البابوات، والأساقفة الأوائل للكنيسة، بقلانسهم، وطاقم الراعي كاملاً، وكل المظاهر الكنسية، اذهب إلى هذه الكوة، وانظر إلى ما فيها.

رد بروجر.

انصاع كيندي للأمر، وذهب ليشاهد واحداً منهم، نظر إلى الرأس المرعبة الميتة الممددة بحرية تامة على قبعة الأسقفية المهترئة التي عفى عليها الزمن، وتمزقت، وقال بصوت كأنه سينفجر تحت هذا السقف المقعر:

- هذه أكثر إدهاشاً، وأهمية مما فكّرت، فبحسب خبرتي أظن أن هذه فريدة من نوعها، هات المصباح بروجر، أريد أن أراهم جميعاً.

لكن بروجر الألماني ابتعد حتى وقف وسط دائرة الضوء الأصفر على الجانب المقابل من القاعة، وسأل من مكانه:

- هل تعرف عدد المنعطفات الخاطئة بين هذه القاعة، والسُلم الذي نزلنا منه؟ هناك أكثر من ألفي منعطف، بلا شك، كانت تلك واحدة من وسائل الحماية التي اعتمدها المسيحيون في ذاك الزمن، فهناك احتمال واحد في الألفين، لخروج إنسان من هنا حتى لو كان يحمل مصباح، لكن إن كان في الظلام، فإن خروجه سيكون أصعب بكثير.

- لهذا علينا التفكير جيداً.

- الظلام هنا رهيب، لقد اختبرته بنفسي مرة، فقط على سبيل التجربة، والآن دعنا نجربه مرة أخرى!

أطفأ بروجر المصباح، وفي لحظتها بات الأمر يشبه يداً قوية ضغطت بإحكام على عين كيندي، في حياته لم يعرف أبداً مثل هذا الظلام، فهذا الظلام يضغط عليه، ويخنقه، كأنه حجر عثرة يسد طريقه، ويمنعه من التقدم، حتى أنه مد يده ليدفعه، وقال:

- حسناً، الآن جربت هذا الإحساس بروجر، فلتُعِد إيقاد المصباح مرةً أخرى.

لكن رفيقه بدأ يضحك، فخرج صوته بسبب الغرفة الدائرية كما لو أنه يصدح من كل مكان دفعة واحدة.

- صديقي كيندي، تبدو قلقاً!

قال بروجر.

- هيا يا رجل، أشعل المصباح.

قال كيندي بفراغ صبر.

- غريب جداً كيندي، لكن في هذا المكان لا أستطيع تحديد مكانك فقط من صوتك، أو في أي اتجاه تقف! هل بإمكانك أنت أن تعرف أين أنا؟

- لا أعرف، لكنك تبدو، وكأنك موجود في كل الأنحاء حولي.

- لولا هذا الخيط في يدي ما عرفت أبداً أي طريق أسلك، من دونه أضيع.

- سأعترف إنك على حق في مسألة تحديد الطريق بالخيط. والآن أضئ المصباح، وانْهِ هذا العبث.

- حسناً كنيدي، أنا الآن أعلم الشيئين الوحيدين في الحياة اللذين تُغرم بهما، أولاً المغامرة، وثانياً تذييل العقبات، ولهذا فستكون مغامرتك التالية هي

اكتشاف طريق الخروج من سراديب الموتى هذه، أما عن العقبة التي ستعمل على إزالتها هي الظلام، والألفي منعطف الخاطئة، والتي ستجعل إيجاد الطريق أصعب قليلاً؛ لكن لست في حاجة للإسراع، فلديك متسعاً من الوقت، وأيضاً يمكنك التوقف للاستراحة من حين لآخر، وحينها ما عليك سوى التفكير في الآنسة «ماري ساندرسون»، والتأكد من إن كنت عاملتها بإنصاف أم ظلمتها.

- أنت شيطان، ماذا تقصد؟

صرخ كيندي، وهو يدور في دوائر صغيرة، ويصفع الظلام الحالك بيديه.

- مع السلامة.

قالها الصوت الساخر الذي كان قد ابتعد بالفعل.

- أنا لا أظن حقاً يا كنيدي، إنك بهذه الفعلة، وبتصرفك هذا قد فعلت الصواب، أو لصالح الفتاة، هناك شيء واحد صغير، ومن الواضح إنك تجهله، وأنا سأعرّفك به، لقد كانت الآنسة ماري ساندرسون مخطوبة لطالب عنيد مسكين، وشيطان، ويُدعى «يوليوس بروجر».

من مكان ما يصله صوت حفيف، وصوت ضرب الأقدام لحجر الأرضية، وبعدها خيّم الصمت على هذه الكنيسة المسيحية العتيقة، صمت مُقبض ثقيل، أحاط كيندي، وحبسه، كما الماء يحاصر رجُلاً يغرق.

بعد حوالي شهرين، تابعت الصحافة الأوروبية كلها هذا الاكتشاف، وكانت تلك الفقرة من أحد الصحف

«سراديب الموتى الجديدة في روما، من أهم الاكتشافات الأثرية في السنوات الأخيرة، والتي تقع على بُعد عدة أميال شرق الضريح الشهير للقديس كاليكستوس، عُثر على هذه المقبرة، التي تُعد من أهم المقابر بما تحتويه من آثار عن المسيحيين الأوائل، على يد الأثري الأكثر نشاطاً، وذكاءً، الدكتور يوليوس بروجر، الشاب المتخصص، الذي أفسح لنفسه مكانة بين الأثرين الرواد في الآثار الرومانية القديمة.

ورغم أنه كان الأول في نشر هذا الإكتشاف، إلا أن المُغامر الأقل حظاً، والذي سبق بروجر، هو السيد كيندي، الباحث الأثري الإنجليزي المعروف، والذي كان قد اختفى من غرفته في كورسو قبلها، وكان من المتوقع أن يغادر روما بعد انتشار علاقته الغرامية السابقة، اتضح الآن أنه في الواقع لم يُغرم إلا بهذا العشق المحموم لعلم الآثار، والذي رفعه لمكانة متميزة بين العلماء الأحياء.

فبعدما اكتُشِفت جثته في قلب سراديب الموتى الجديدة، اتضح من الحالة التي كانت عليها أقدامه، وحذائه؛ أنه سار لعدة أيام عبر الممرات المتشابكة التي تتكون منها المقابر الأرضية، والتي تُشكل خطراً كبيراً على هؤلاء المستكشفين.

كان السيد المتوفي، والذي لا يمكن تفسير تهوّره، شق طريقه عبر هذه المتاهة، كما تبيّن، دون أن يأخذ معه ثقاب أو شموع، فكان من الطبيعي أن يلقَى هذا المصير البائس جراء طَيشه.

هذه المأساة وقعت أكثر إيلاماً على الدكتور «يوليوس بروجر» فهو الصديق المقرب للدكتور كينيدي المتوفي، فرحته بهذا الكشف الاستثنائي، الذي جعله أكثر الأثريين حظاً، أفسدها المصير الرهيب لصديقه، ورفيق عمله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



متميزون
للكتب النصية



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

فهرس